مها حسن

رواية

اللامتناهي
سيرة الآخر

سرد

t.me/qurssan

اللامتناهي
سيرة الآخر

رواية

مها حسن

اللامتناهي: سيرة الآخر - رواية

تأليف: مها حسن

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 76 - 0

الطبعة الأولى: 2019

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 +963
جوال: 557195187 +971
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 +961
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com/Sard.Publishing
twitter.com/SardPublishing

جميع الحقوق محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرين الخطية.

t.me/qurssan

مصادر السيرة

قمت بجمع مواد السيرة من ثلاثة مصادر:

1 ـ ذكريات أدهم الشفوية.

2 ـ كتابات أدهم التحريرية، التي دوّنها في دفترٍ خاصّ به، كان يطلق عليها عدّة تسميات كـ: دفتر السرد، دفتر التشريح، دفتر القصّ، دفتر الثرثرة، دفتر الـ...

3 ـ بعض المعلومات التي قالتها عنه نساؤه، وقد اجتمعن جميعهن تحت اسم واحد هو سلمى، وهذه هي رغبة أدهم، إذ إنه أصرّ على أن الحبّ حالةٌ ثابتة في الإنسان، تصيبه، فيتعمّم شخص المحبوب على كلّ الأشخاص. واحتراماً منّي لرغبة أدهم، فقد سمّيت كل الشخصيات النسائية هنا باسم سلمى، عدا جدّته وأمّه طبعاً، وكنت أنوي فرز الخطوط طباعيّاً، بحيث أفصل ما يقوله أدهم شفويّاً عمّا يكتبه، عمّا يقوله الغير عنه، سلمى مثلاً، وعمّا أتدخّل أنا لتبيانه.

ولكن، لثقتي بالقارئ الحصيف، فقد ألغيت الفكرة، وأبقيت الفقرات بخطٍّ طباعيّ واحد، ومن قبيل التوضيح فقط سأشير إلى ما يلي:

1 ـ بدأت المقاطع الشفوية بكلمة: ناجى، أو شرد كعادته، حتى خلت أن القارئ دخل في جوّ العمل وصار يميّز زمن الشرود، فأهملت الإشارة إلى فعل التذكّر الشفوي.

2 ـ بدأت المقاطع التحريرية بكلمة: راح يدوّن.

3 ـ ما قالته المرأة التي أحبّها، وما قالته أمّه ذات مرّة، متدخّلتين في العمل، وضعته داخل قوسين كبيرين هكذا [[ ]].

4 ـ بدا واضحاً في العمل أني تدخّلت، بصفتي راوية، في ما يصعب على القارئ معرفته دون قيامي بذلك، وقد دخّلت لهجتي ولغتي بين المقاطع لأوضّح معالم أدهم.

t.me/qurssan

اللامتناهي

نادى للمرة الثالثة، باسمي، وتجاهلت للمرة الثالثة نداءه.

وثار لغط: أدهم بن ورقة، من يكون؟

لم أسمع باسمه من قبل.

ربما هو ساكنٌ جديد هنا.

ولد أدهم بن ورقة عام 1941، وكان معتدّاً بنفسه، متباهياً، مغروراً. ولكنّه، مع ذلك، كان محبوباً، مألوفاً، مبرّرة له كلّ فظاظاته التي لم يعتبرها أحدٌ فظاظاتٍ بتاتاً.

كان عليّ أن أمدّ رأسي من النافذة وأردّ على موزّع الرسائل: أنا أدهم بن ورقة، أعطِني الرسالة! إنها تخصّني، تخصّ أدهم، أنا!

من جهاز التسجيل كانت تنبعث ألحان أغنيته المفضّلة: «على جسر ميرابو»، وكان مشغولاً بترجمتها إلى اللغة العربية. كم تذكّرني كلمات الأغنية بمشهد الحديقة العامّة، فثمّة جسرٌ متهدّم تفوح منه رائحةٌ نتنة لمياهٍ آسنة في نهرٍ جفَّ ولم يُردَم.

يجب عليّ فعل شيءٍ ما، أيّ شيءٍ يوقف صياح موزّع الرسائل، وإصراره على نطق اسمي بهذه العلنية والوضوح: «أدهم بن ورقة، رسالة!». عليّ أن أمدّ رأسي من النافذة إذاً، وأقول: انتظر! هيه، لا تغادر! أنا أدهم. سأنزل إليك في الحال.

ثمّ أنزل وأفتح الباب، أستلم منه الرسالة وأوقّع على الاستلام. وسينظر الجميع من نوافذهم، ومن خلف أبوابهم، ويحدّقون إليّ، ثم يتبادلون النظرات، ويتّفقون ضمناً: «هذا هو أدهم، إذاً!»، «هذا هو الساكن الجديد!»، «ها ها... أدهم هو اسمه إذاً... منذ أيّام وأنا أحاول تخمين اسمه!»، «ألا يبدو أن اسماً آخر يليق به أكثر؟!».

شيءٌ سخيف. شيء في منتهى السخف. سوف يُختصر وجودي كلّه في جملةٍ ثلاثيّة الكلمات: أدهم بن ورقة. هل يُعقَل أن يكون وجودي وكلّ عالمي، وأفكاري، وخيالاتي، وأحلامي، كلّها متضمّنة،

t.me/qurssan

في تكثيفٍ شديد، في جملة: أدهم بن ورقة؟! إنّ هذا يجعلني أشعر بـ...

لتجواله في الحديقة فضلٌ كبير عليه، إذ إنّه غالباً ما أنقذه من الملل.

أدهم بن ورقة، رسالة!

سأنزل بعد لحظات. أهبط الدرج مسرعاً، أفتح الباب بعنفٍ، وأخاطبه بعصبيّة: فهمنا، أنا أدهم، أمرك، تفضّل! لا أريد رسائل ولا إزعاجات، اتركني وانصرف عني! لقد سئمت نداءك باسمي: أدهم بن ورقة، أدهم بن ورقة... هذا شيء، مـ...

ولد أدهم بن ورقة عام 1935، وكان رجلاً عصبياً، صامتاً في معظم الأوقات، يغالبه شعورٌ ضخم بالنقص والخجل. وكان في بعض الأوقات عنيفاً. وهو في جميع الأوقات رجلٌ مكروه، منبوذ، مهمَلٌ، يتحاشاه الآخرون، حتى لو كان يودّ إلقاء التحيّة فقط.

ما إن يعرف الآخرون أن اسمي هو أدهم، حتى يعاملوني على هذا الأساس. فكم تغيّرت علاقتي الداخلية بأشخاصٍ اعتقدت أن لكلٍّ منهم اسماً ما، وعندما عرفت أنه يحمل اسماً مغايراً، لا أدري لماذا كان يصرّ الاسم الخاطئ، الذي اعتقدته، على فرض نفسه، بينما يغيب الاسم الحقيقي عن شكل الشخص، فكأن اسمُه يحدّد شكلَه، وربّما محتواه.

سوف يصاب كثيرون بالإحباط، إن عرفوا اسمي، سوف تتغيّر صورة العلاقة الداخلية، بين اسمي ومخيّلتهم، وبين شكلي ومعاملتهم، وبين أشياء منّي وأشياء منهم، وسوف يضطرّون ويضطرّونني لاستعمال اسمي وتلقّيه. نعم، أيْ هكذا: السيد أدهم: رسالة! الأخ أدهم: الخبز! جارنا أدهم: الحليب! عزيزي أدهم: الوقود... وسأقع على اسمي طويلاً، إذ إنّه سوف يحذفني، ويبقى علامة دالّة عليّ. وسيصبح وجودي هو وجود اسم أدهم، أما أنا فمتضمَّنٌ، ومحمولٌ ومرمّز، في الاسم: «أدهم».

أكره الأسماء، ولا أعرف لماذا أكره أن يعرف الآخرون اسمي. أهذا

t.me/qurssan

ينقلني من التجريد إلى التحديد مثلاً؟ أيلقي عليّ ثمة مسؤولياتٍ... مثلاً؟!

أدهم بن ورقة

نهضت الآن

48 من 100 معدّل وسط كالعادة.

نظر إليّ جميع الطلاب في الصف، بينما ركّز المعلّم نظرته عليّ، تاركاً جميع الطلاب.

لن أدع الجيران يوجّهون نظرة فاحصة إليّ.

لماذا تصرّ على عدم تجاوز الوسط، أنت لا تتقدّم بتاتاً، البقاء ثابتاً يعني التراجع.

الجميع ينظرون إليّ، وأنا واقفٌ بينهم، وهم جلوسٌ، وإليّ فقط يتوجّه المعلّم بالحديث، عليّ أن أصغي، يجب ألا أشرد كعادتي، عليّ الإصغاء بتركيزٍ إلى كلّ كلمةٍ يقولها المعلّم.

عليّ الإصغاء بتركيزٍ إلى كلّ كلمةٍ يقولها موزّع الرسائل.

فقد يسألني، بعد أن يتوقّف عن الحديث، وسيكتشف شرودي، وسَيُوبِّخني.

لماذا تختار هذا المكان بالذات؟

أحبُّ التلّة، من هنا أرقب بيوت القرية، وتحديداً، بيت عمّتي.

اسمع، إمّا أن تبذل جهداً مضاعفاً في دراستك، أو أني أنصحك بترك الدراسة! أمّا أن تبقى هكذا، فلا أظنّ أن الأمر سيكون ذا نتائجَ مُرضيةٍ.

تُرى، لماذا تصرّ سلمى على متابعتي أينما ذهبت؟ هل كنّا نلتقي بالمصادفة؟ أم كانت تتعمّد اللحاق بي؟

اجلس! مع أني شاكّ في أنّك تهتمّ بما أقول، إنك دائم الشرود.

t.me/qurssan

جلست، لن أتحدّث إلى موزّع الرسائل.

عندما أسير بمحاذاة التلّة، أعلى تلّة، أرى منزل عمّتي بدقّة تفصيليّة. من هناك أرى جميع الأشياء، كلّ شيء.

غادر موظّف البريد.

إلى الجحيم، أيّها الرجل!

كانت مشاعره الحذِرة تفوق رغبته في استلام الرسالة، كان يؤلمه الإحساس الدائم بأنه محطُّ المراقبة، أن العيون عليه، تراقبه، تسجّل حركاته، ولن ترحمه فيما لو حدثت منه أيُّ هفوةٍ أوقعته أضحوكةً تلوكها الشفاه والألسن والنظرات.

أعدتُ الاستماع إلى الأغنية مراراً، يجب أن أتقن اللغة الفرنسية، على جسر ميرابو، تُرى، هل كان ينبغي عليّ استلام الرسالة؟

من التلّة كنت أراقب جميع البيوت.

كما ترون يا أبنائي، زميلكم أدهم، مصابٌ بداء الشرود.

أحاول التركيز. الكلمات جديدة عليّ.

عندما أغمض عينيّ، أرى انزلاق التلّة رماديّ اللون، بلون الإسفلت، مع أن لونها ليس هكذا، لكنّ منظر التلّة وتكويرها لا ينمحيان من ذاكرتي. أنظر إلى شبابيك الصفّ وأغمض عينيّ، فتنزلق التلّة أمامي، بانزلاقها الرمادي اللون، ويتركّز السطح العلويّ لها، الانحدار الكامل، وسلمى جالسةٌ قربي، لا تنفكّ عن العبث بالغصن اليابس.

يستطيع الطلاب الانصراف، فقد انتهى الدرس.

لم يكن أحدٌ منتبهاً إلى وجودي هنا. يدي تؤلمني. البارحة ضربتني سلمى بغصن نبات قرّاص. كنّا نلعب، وكانت تجهل أنه قرّاص، فسبّبت لي الحكّة طيلة الليلة الماضية.

ألن تنصرف؟ غادر جميع الطلاب!

t.me/qurssan

جاءت سلمى كعادتها، تشمّ رائحتي أينما كنت، وتحشر أنفها في كلّ ما يخصّني.

يبدو منزل عمّتي واضحاً من هنا.

نعم، انظري لقد نهضت الآن لتقطف الفول من الحاكورة.

أجل، أراها بدقّة، إنها تلبس ثوبها الملوّن بالورود البنفسجية والخضراء.

نعم، وذاك كلبها.

إنه يتبعها على الدوام.

كلبٌ مخلِص.

كيف عرفت أني هنا؟

لم أعرف. كنت أتمشّى فرأيتك.

تكذبين! أنت تتلصّصين عليّ.

مخطئ. هذا إحساسك فقط!

لماذا تتبعينني كلّ يوم؟

أنا لا أتبعك. فقط أشعر بالملل، وعندما أراك أتسلّى معك.

هيّا إذاً، انصرفي الآن، وابحثي عن تسليةٍ أخرى غيري!

لا أريد. سأبقى هنا. أحبُّ تأمُّل منزل عمّتي!

اذهبي إليها!

لا! أفضّل أن أراها من هنا.

متطفِّلة!

ألن تغادر؟! لقد غادر الجميع!

ماذا يفعل هذان الولدان هنا كلّ ظهيرة؟!

t.me/qurssan

يتسلّيان بروي القصص.

أخشى أن يكون في الأمر رذيلة!

ما كانا اجتمعا هنا، في عزّ الظهيرة، أمام أنظار الجميع.

ربما يظنّان أن لا أحد يراهما!

لا أعتقد.

انظري! عمّتي تتحدّث عنّا.

كيف عرفت؟

إنها تتحدّث مع زوجها وتشير إلينا برأسها.

لا أعتقد أنها ترانا على هذا البعد، إن نظرها ضعيف.

ولكن رؤية زوجها جيّدة، عيناه قويّتان.

وهل ترانا بعيونه؟!

إنهما متلصّصان... ينقل كلٌّ منهما للآخر ما يرى!

لماذا كنت أحسّ بالغبطة عندما تقترب سلمى مني، وتأتيني رائحة الصنوبر؟

كنت أصطاد العصافير وأحشرها في فجوات أحجار الجدار الطيني. وكانت سلمى، بعد نهاية عملية الصيد، تجمع الجثث وتحصيها، وتصرخ منتشيةً أمام صبيان القرية:

ابن عمّي اصطاد أكبر كميّة، ابن عمّي هو الأول، إنه الأول!

أأنا الأول حقّاً؟

أصحيح أنكم تنامون في غرفةٍ واحدة، أنت وبنات عمّك وإخوتك وأخواتك؟!

نعم. لقد ربينا كأسرةٍ واحدة. لا فرق بيني وبين أولاد عمّي، ولا

t.me/qurssan

بين أخواتي وبنات عمّي.

وسلمى؟

ما بها؟

أتنام معكم في غرفةٍ واحدة؟

نعم.

أتنام سلمى معك في الغرفة نفسها؟

نعم.

كان ممدوح يعبث بحجرٍ صغير محاولاً إصابة ضفدع اختبأ بين أكوام الحجارة، ولم يكن مركّزاً على ضحيّته، إذ إنّه كان حينئذ منهمكاً بمسألتين شغلتاه معاً: سلمى والضفدع، حتى كاد الضفدع، ينسلّ ويبتعد، عندما تباطأت الحجارة في ملاحقته. فقد انتهز الفرصة وأسرع بالهرب، عندما قفز عليه أدهم وأمسك به، فانتبه ممدوح وغابت سلمى عن مخيّلته.

دعه!

كاد يهرب!

دعه، إذاً!

أتمتّع بمنظره بين يديّ.

ملاحقته بالحجارة أكثر متعة.

كاد يهرب.

سأتبعه أينما هرب. دعه لي!

إني أتمتّع بمنظره هكذا، دعه لي!

قلت لك: دعه، سنرهقه بالمتابعة والملاحقة، ثم خذه إن أردت، ولكن بعد أن يُنهَك تماماً.

لماذا كان ممدوح يذكّرني بـ سلمى، كان ثمّة إحساسٌ غامضٌ بالدمج بينهما. كلّما رأيت أحدهما تذكّرت الثاني، وكانت لكليهما رائحة واحدة: رائحة الصنوبر. لماذا كانا، في داخلي، مرتبطَين؟

لممدوح وسلمى رائحة الصنوبر، كانت سلمى تمتلئ بالحنان وتشعّ به، وكان ممدوح كذلك.

أتتمتّع بالجلوس تحت شجرة الصنوبر؟

ألا تلاحظين أنّني، كلّما زرت جدّتك، شربت الشاي تحت شجرة الصنوبر؟!

لماذا تحبّها؟

جدّتك؟!

الشجرة!

أحسّ أنها حانية، انظري كيف تمتدّ أغصانها نحوي، كأنها تلعب بخصلات شعري، كأنّها تُعْلِمني بحبّها وارتياحها لجلوسي تحتها!

مدّت سلمى يدها، للمرّة الأولى، لتزيح خصلة شعرٍ تدلّت على جبينه، وأبعدت الغصن المتدلّي كذلك عن وجهه.

دعيه!

هكذا أراك أفضل.

إلا أن الغصن عاد ثانية إلى موضعه، ليلامس جبهة أدهم، فمدّت سلمى يدها إلى رأسه وأزاحته عن موضع الغصن.

أبعد رأسك قليلاً!

أحبُّ احتكاك الغصن بوجهي.

لا، ابتعد! لا أراك جيداً.

اقتربت منه، فاختلطت رائحتها في أنفه برائحة الشجرة.

t.me/qurssan

وكان لجسدها رائحة الصنوبر.

ماذا يفعل هذان الصبيّان هناك؟

لماذا أنت مهتمّة بمراقبتهما؟!

أخشى أن يكون في الأمر رذيلة!

إنهما أدهم وممدوح، صبيّان معاً.

أفلا يرتكب الصبيان الرذيلة معاً؟!

دعيني أنظّف جرح قدمي، ائتيني بماءٍ ساخن وكحول!

كان يسير بمحاذاة التلّة، أعلى تلّة، ومنها كان يرى منزل عمّته بتفاصيله. وكان [مَن رائحتُه تشبه رائحة الصنوبر] معه، عندما سمعا صوتاً نادى [أدهم].

استدار ممدوح إلى جهة الصوت، وتوقّف عندما رآها، بينما استمرّ أدهم في حديثه وسيره، وكأنّ النداء لا يخصّه.

كانا يسيران بحذاء التلة، وينحدران نحو الطريق المحشوّة بالحطب المهترئ والأسلاك والأعشاب والحشرات الحيّة والميتة والخرق القديمة، حتى كان ثمّة قطعة من ثوب عمّته ذي الورود البنفسجية والخضراء و... (ألوانه كثيرة). وكانت قد مسحت بها مؤخّرة ابنها ورمتها عند المنحدر القريب من باب حوشها، حيث تحرق عمّته كومة النفايات بين الفينة والفينة.

تابعت سلمى: أدهم... أدهم!

وتابع أدهم سيره وحديثه مع شخصٍ توقّف عنه وما زال...

تنبّه أدهم فجأة ولمعت بذهنه الأفكار مسرعة: أدهم.. أنا، هذا يخصّني، عليّ أن أردّ، النداء موجّه إليّ! وشعر بإحساسٍ غريب داهمه في تلك اللحظة، شعر بمتعةٍ بلّلته. أهو اكتشاف خصوصية النداء، أم رائحة الصنوبر؟

لماذا تلحقين بي دوماً؟

t.me/qurssan

ألم ينهَكَ عمّي عن التعامل مع ممدوح؟

إن هذا لا يعنيكِ؟

بلى!

وما شأنكِ أنتِ؟

أخشى أن يوبّخكَ عمّي!

ومن أين له أن يعلم بذلك؟!

أنا أُغلمه!

سأضربكِ وأكسر لكِ ساقكِ كي لا تلحقي بي بعد اليوم!

لكنها هربت بسرعة الطائر، بعدما هدّدته بإعلام عمّها.

كان إحساساً غريباً ذلك الذي تفجّر فيّ، لحظةَ انتبهت إلى نداء سلمى. حاولت فهمه، فلم أصل إلى شيء. حاولت شرحه لممدوح، فراح ينظر إليّ بغباءٍ ودهشة. ماذا يعني أن يكون لك اسم؟ كنت أحبّه، ذلك الممدوح، رغم غبائه. وهذا أيضاً من الأمور التي لا أفهمها في نفسي: أن يحبّ امرؤٌ امرأً آخر وهو يعرف أخطاءه وعيوبه، فيتجاهلها ويرميها بعيداً. اعتقد ممدوح أنني ثرثارٌ أحبّ المبالغة كعادتي، والوصف الحقيقي لما أحسست به هو فرح الامتلاك، امتلاك الاسم، أن يكون لك اسمٌ تتميّز به، خاصّ بك، تقفز صورتك إلى أذهان الآخرين ما إن يصل اسمك إلى مسامعهم.

طلبت من ممدوح أن نقوم بتجربةٍ صغيرة، لأستعيد ذلك الإحساس، محاولاً البرهنة على أمرٍ ما سأستنتجه من تكرار التجربة.

قفزنا من فوق السياج المنخفض، تأكّدنا أن الحوش خالية، كانت حوش أبو عدنان أكبر حوشٍ في القرية على الإطلاق، وكان الرجل يسافر إلى المدينة تاركاً حراسة حوشه للجيران، ولكلبه

t.me/qurssan

الذي لم يغادر الحوش رغم مغادرة ساكنيها. فقد كان الكلب يقتات على بقايا الجيران، وكان مدلّلاً، رغم غياب أصحابه. اتفقنا، ممدوح وأنا، أن يقف أحدنا في طرف الحوش، ويقف ثانينا في الطرف الثاني، ويقوم ممدوح بمناداتي من بعيد، وكلّما نادى مرّة، أقترب خطوة. وراح ممدوح ينادي، كنت أسمع صوته ولا أراه:
[أدهم... أدهم... أدهم!]

وفجأةً تغيّر الاتفاق:

نادِني باسمي أنت أيضاً!

أريد

أن

أجرّب

هذا

ممدوح، م م د و ح! ممدوح!

أدهـــــم!

ممدو.....ح!

كلّما نادى أحدنا باسم الآخر، اقترب صاحب الاسم خطوة، حتى التقينا وسط الحوش، تصافحنا كمتآمرين، وتمرّغنا في التراب منتشيّين بلعبة /التنادي/: تبادُل النداء.

خنازير! وحوش قذرة! ستضربكم أمهاتكم... لقد لوّثتم ملابسكم بالتراب!

كانت سلمى تتلصّص من فوق السياج، ولا تملك الجرأة على القفز، إمّا خوفاً من أن تقع وتؤلمها قدمها، أو خوفاً مني، لأني كنت قد هدّدتها بالضرب.

لم أترك لها وقتاً لتتوقّع هجومي فتهرب، قفزت إليها فوراً وأمسكت بها من شعرها، وجذبتها من أعلى السياج، فوقعت في

t.me/qurssan

حفرةٍ ترابيّة رطبة، وتلوّثت ملابسها بالطين. نظرتُ إلى عينيها، كانتا مليئتين بالدموع، لا بدّ أنها تألّمت بشدة، ولكنّها رفضت أن تبكي.

كلب! خنزير! سأجعل أبي يملأ فمك بالخـ...

لماذا لا تبكين؟! هيّا، هيّا أيتها الطفلة! عيونك ملأى بالدموع، فلماذا تكابرين؟!

أنت ابن عمّي؟ كلا! أنت غريب عني... أنت وحش! خنزير! أكرهك!

كاد ممدوح يصفع أدهم وهو يراه يعذّب سلمى بتلك الصورة، إنها سلماه، سلمى التي كان يجمد عندما يراها، فيتوقف عن كلّ شيء: الأكل، السير، الحديث، اللعب...

كانت سلمى في عمر أخته، وكانتا صديقتين، وكان ممدوح يحبّ أخته، كان لسريرها رائحة لذيذة، كان ممدوح يتسلل إلى غرفة أختـه عندما تغادر، فيحشر أنفه في شراشفها ويشمّ الرائحة بعمق، فيشعر باللذّة، رائحة نتانة لذيذة تجذبه بشدّة.

انتشيت، كانت لذّةً هائلة، أفسدَتها سلمى باقتحامها ساحة التجربة، وطلبت من جميع أصدقائي أن ينادوني باسمي كلّما رأوني من بعيد، حتى إن لم تكن لهم حاجة بي.

كنت أسير وسط ساحة القرية، حيث اجتمع كبار الرجال والشيوخ. كانوا يجتمعون عصر كلّ يوم لشرب الشاي في الساحة، ويتحدّثون في أمورٍ تخصّهم، وكان أبي بينهم. سمعت صوت ممدوح يناديني: أدهم!

كانت لعبتنا الجميلة، لعبتنا الخبيثة، نمارسها أمام الأكثر عدداً على الدوام.

ممدوح!

غمزت له.

t.me/qurssan

ممدوح، وشعرت بالزهوّ.

ناداني أبي: أدهم، تعال!

سوّيت ياقة قميصي، ورحت إليه.

تحـوّل ممـدوح أيضاً إلـى خنزيـر، بعـد أن ضـرب أدهـم سـلمى وغـادرها منفعلاً، بقي ممدوح وسلمى وحيـدين في حوش أبو عدنان الكبيرة، الواسعة، الخاليـة. كانت سلمى متوجّعة، ملوّثة الملابس، محتاجة إلى بعض العطف، ولكن ممدوح كان خنزيراً.

لم أشعر بالعار عندما حدّثني ممدوح عما حصل بينهما، شعرت باللـذة، ممـدوح وسـلمى معـاً، يَتَخـنزران معـاً، اجتـاحتني رائحـة الصنوبر.

كـان مـن المفتـرض أن أشـعر بالغضـب، بالإحسـاس بالخيانـة، أن أتألم، أن أضرب ممدوح، أقتله، ولكني لم أحسّ بأيّ أذىً أو إهانةٍ أو ضيق. على العكس، شعرت بالوساعة، بالراحة، ماذا أفعل الآن؟ ممدوح ينتظر ردّي، الرجل يشعر بالخجل والعذاب والندم، يحسّ أنه أساء إلى صداقتنا العظيمة، يقول إنها ساعة شيطان وهو مستعدّ لإصلاحها. كان يجب أن أبدو منفعلاً، متضايقاً، غاضباً، مستنكراً...

ماذا أفعل الآن؟ القوانين والشرائع الأخلاقية تملي عليّ سلوكاً لا أحـسّه منسـجماً مـع حـالتي النفسية وأحاسيسي الآنيّة. سوف يسخر ممدوح مني إن تسامحت معه، سيراني خسيساً، مخصيّاً، بلا ذكورة، بلا شهامة. حتماً، يجب ألا أُظهر أني ما تأذّيت، عليّ أن أفتعل الضيق والأذى، وإلا سقطت في أحكامٍ أكرهها، ووُصفت بأوصافٍ مجانيّة، وسريعة، وجاهزة.

طلبـت منـه، بـهدوءٍ، أن يغـادر القريـة، وألا يجعلنـي أرى وجـهه بعدها. ولم أرَ وجهه بعدها.

أفلا يعرف أحدٌ صاحب هذا الاسم؟ يبدو أن العنوان خاطئ، وليس هناك أحدٌ بهذا الاسم.

t.me/qurssan

حسناً، لينصرف عني!

لماذا كنت أحب السرّية والتكتّم؟ ولماذا لست علنيّاً ومكشوفاً؟

لا يقطن أدهم بن ورقة هنا، فلم يسمع أحد به من قبل.

الاغتصاب، كان هذا يحذف قلقي، ويشكّل إهانةً للغير، وطمأنينةً لنفسي. كلّما سمعت عن رجلٍ اغتصب امرأةً، شعرت بالأمان، كأن أحدهم انتزع حجراً يرزح فوق صدري، بإيلامٍ دائم ومستمر.

غادر موزّع الرسائل دون أن يسلّم الرسالة لصاحبها.

عاد أدهم ليتابع الاستماع إلى أغنيته المفضّلة. ثم توقف ليُمسك بدفتره وقلمه ذي اللون الأخضر، متابعاً تسجيل أفكاره وسرد مذكراته. كان يسرد على طريقته، ويمزّق كل يوم ما كتبه في اليوم السابق. وراح يدوّن:

الإنسان كيسٌ مربوط بشدّة، وانفلات الرباط يؤدّي إلى اضطرابٍ وضياع، إذ ينفلت المزيج اللا متجانس، فيصعب فرزه وتصنيفه وإيجاد علاقاتٍ تربط أو توصل إلى عوامل مشتركة في ما بين اللاتجانسات تلك. وتلك اللاتجانسات هي في معظمها كومة الذكريات، إنها غالبية الحشوة. نعم، هذا مسلٌّ جدّاً. الإنسان بطانة، تحوي حشوةً هائلة من الذكريات، والسلفيات. فهناك أشياء عاشها الإنسان تسمّى ذكريات، وهناك أشياء سوف يعيشها، هي السلفيات، وهي موجودة كذلك في البطانة، أعني تحت البطانة، أي داخل الكيس. شيء مضحك.

ما الإنسان إذاً؟ أهو الماضي الذي عيش؟ أم السلف الذي لم يأتِ بعد؟ وإني أبرهن على نظرية السلفيات أو المسبّقات، بالأحلام. فما تبريركم لرؤيتنا أشخاصاً وأماكن لم نرَها حقيقةً، نراها في الأحلام؟ البارحة حلمت برجلٍ لم أرَ مثله في حياتي، ومنزلٍ لم أره في عمري، ولكن ربما أراهما في القادم، القدوميات. هذا مضحك ومسلٍّ، ويشعرني بالعبثية الهائلة لهذا الكون. أبالمصادفة إذاً تندلق إحدى محتويات الكيس لتشكّل عالمي النفسي؟ أبالمصادفة يندلق الاكتئاب ليحيل ملامحي إلى التجهّم والحزن؟

t.me/qurssan

أبالمصادفة تأتي السعادة، الحظ، الأمل، اليأس؟!

هذا كلامٌ هراء... عبثيٌ، ومؤلم، وغير إنسانيّ.

قرأت القابلة الورقة الموجودة في باطن كفّ الوليد، فأذعنت، وجعلتهنّ جميعاً، يذعنّ للتسمية «إنها المشيئة العلوية!» قالت. فقد كانت كلمة [ادهم] منقوشةً بخطوطٍ دمويّة على الورقة اللحمية الشفافة، الشديدة الشفافية التي تكاد تكوّن غشاءً سرياً. وبدا واضحاً في باطن كفّ الوليد، بعد انتزاع قطعة اللحم الشفافة تلك، بدا واضحاً ظهور شرايين زرقاء قاتمة في كفٍّ بيضاء بضّة بأصابع صغيرة، شكّلت الشرايين كلمة [ادهم]دون الهمزة، فقالت جميع حاضرات الولادة: ليكن اسمه ادهم! وشاع عنه: أدهم بن ورقة، نظراً لوجود تلك القطعة اللحمية الشفّافة، أو الغشاء السرّيّ، الذي كان يشبه شكل الورقة.

راح يدوّن:

الإنسان كيس.

الإنسان كيسٌ محشوّ.

الإنسان كيسٌ محشوٌّ بالذكريات.

رفع رأسه عن الدفتر... دفتر السرد، دفتر الوصف... دفتر اللذّة. لذّة الحكي والثرثرة والحديث والحدث. شرد قليلاً. ثم راح يدوّن:

الماضي هو الكيس. يهرب الإنسان للاختباء في كيسه، يضع رأسه في سرّته، ويغفو على رائحة ما كان.

ما زال معظم البشر يحيون ويتنفسون ويتغذّون من خلال ذلك الكيس، فهو يمدّهم بالاستمرار، يمدّهم بالمثابرة، يمدّهم بالامتداد.

قلّما التقيت بشخصٍ غادرَ كيسه، وحوّل نفسه إلى كيسٍ فارغ من الماضي، كيسٍ يملؤه بما يريد، كلّ المحتويات إجباريّة، قدريّة مسبقة.

t.me/qurssan

لا أحد استطاع إفراغ كيسه، لملئه بأشياء جديدة، مصنوعة برغبته وإرادته ووعيه. لا أحد تجاوز ماضيه، وألغى تاريخه، ليصوغ الجديد.

شرد أيضاً. تذكّر شيئاً ما. انتبه إلى القلم الذي ملأ الصفحة بالخطوط الخضراء العشوائية، كأن طفلاً عبث بالأقلام والأوراق. عاد إلى يقظته، وراح يدوّن.

سألني أحد الأذكياء، عندما تحدّثت عن نظرية الكيس:

ما الطريقة التي تمكّننا من الخروج من تاريخنا القديم؟

كان جوابي بصيغة واحدة دوماً: كي نخرج من التاريخ القديم، علينا صياغة تاريخ جديد.

إذ كنت مؤمناً أن وجود التاريخ الحاليّ للمرء يؤكّد حاضريّته ويلغي ماضويّته، أو التصاقه الأزلي بكيس الذكريات الماضية والمستقبلية، والتي حدثت، والتي ستحدث، والتي لن تحدث، لأن الزمن القصير للإنسان لا يكفي لحدوث كلّ شيء، ولا لتحقّق كلّ المحتويات.

شغلني هاجسٌ دائمٌ: كيف أُنقذ البشر من أكياسهم؟

ذاك الكيس الذي ينفتح دون قانونٍ أو نظريّة واضحة، ينفتح بغتةً، وتباغتك محتوياته، عندما تأتيك رائحةٌ ما، أو ترى ظلاً ما، أو ضوءاً، أو مشهداً، أو انكسار ضوءٍ على نافذةٍ مظلمة، أو تسلُّل شعاع الشمس أو القمر إلى غرفتك الحزينة، وربما السعيدة، أو تقرأ كلمةً تقع من كتابٍ ما، فتشغلك، أو ترى وجهاً جديداً... كلّ هذا، أو أيٌّ منه، كفيلٌ بانفجار حقلٍ من الصور في داخلك، صور كنت تظنّ أنّها ولّت وماتت.

ولد أدهم بن يرقة عام 1947، أسمته أمُّه يرقة باسمها، إلا أن اسمها الحقيقي هو حرقة. أما العوامّ فقد استخدموه بطريقةٍ خاطئة، فكانوا ينادونها يرقة بدلاً عن حرقة، إمّا لجهلٍ منهم، أو لعمدٍ، ومع طول الاستعمال، حلّ الخطأ محلّ الصواب، وأصبح

t.me/qurssan

الخطأ صواباً.

نهض من خلف طاولة الذكريات، طاولة السرد، طاولة القصّ، طاولة التشريح. توقف عن التدوين، وراح يتجوّل في غرفة الذكريات، غرفة السرد، القصّ، التشريح.

نعم، توقف أدهم عن الكتابة، وراح يزيح غبار مكوّناته، فناجى:

كنتُ متمحوراً حولك، دائراً حواليك، قاعداً حيالك. كنتَ متمركزاً فيّ، كان يجب أن تعلم أن كلّ ما مرّ عليّ يعود إليك. أنت السبب في كلّ أحوالي. كلّ ما قمت به من أفعالٍ كان موجّهاً إليك، إليك يا أبي، مبتغياً إرضاءك.

كم حلمت بيدك تحطّ على كتفي، تباركني، تلغي آثامي وخطاياي!

كان كلّ فعلٍ منّي ينمّ عن الخطيئة، مهما كان بريئاً وشرعيّاً.

لم أكن أشعر بنبل سلوكيّاتي وصحّتها واستقامتها، الاستقامة كانت تعني يدك. نعم، يدك التي تلامس كتفي بحنان، تضفي الشرعية والاستقامة والصحة على كلّ أفعالي، كانت لمسة يدك كفيلةً بإنهاء خوفي من الخطأ، وخوفي ألا أكون كما ينبغي، سويّاً، معافى، صحيحاً.

عانت أمّه من آلام الوضع ما عانت، واجتمعت نساء العيلة حولها، وهي تولول وتصرخ وتشدّ شعرها من الألم، وفجأةً، اندلق سائل أبيض. «انفجرت مياه الرأس!» صاحت النسوة، «صبيّ، يا امرأة الورقة!» تابعت النسوة.

قيل إن تلك المرأة قد حملت من ورقة، إذ كانت تتجوّل في الغابة، عندما لمحت ورقة خضراء يانعة، تلمع لمعاناً شديداً، التهمتها بسرعة امرأةٍ عطشى، ثم حملت بعدئذ.

وقيل إن أدهم لم يأتِ من صلب رجل، إنما من صلب الطبيعة.

عاد ليُزيح الغبار عن مكوِّناته، فناجى:

أكنتِ تعلمين احتياجي إليك؟ أكنتِ تتألّمين وتكابرين؟ أم أنك ما

t.me/qurssan

كنت لتُحسّين بي؟!

إن ما فعلتِه بي حقيقيٌ يا أمي، ما فعلتِه بي ما زال ثابتاً فيّ كالوشم، حقيقيّاً يا أمّاه، حقيقياً حتى اللحظة، وأنا ابن الخمسين.

أطفأ سيجارته، تابع شروده، ثم عاد إلى الطاولة، وراح يدوّن:

ما زال معظم البشر يحيون وهم يتذكّرون، ما زالوا مرتبطين أشدّ الارتباط، بأحزمةٍ وحبالٍ لا تتمزّق ولا تضعف، بما قد سبق أن مرّ عليهم. وكلّما كانت البدايات أبعد، كانت أكثر ارتباطاً بصاحبها، والعكس يصحّ، أي، كلّما كانت البدايات قريبة، أبعدتها الذاكرة وحفظتها في أمكنة نائية.فمثلاً: لو أنّ حدثاً ما قد حدث معي -دون النظر إلى مقدار أهميّته- منذ أربع سنوات، ولو أنه حدث الحدث نفسه معي منذ عشرين سنة، فإن الحدث الذي يبلغ عشرين سنة هو الأكثر تأثيراً في الذاكرة. كلّما تقدّم الإنسان في العمر، طفح مزيدٌ من السنوات الأسبق إلى ذاكرته، وسجنته في كيسها، سواءٌ بحسن نيّةٍ أم بسوئها.

أشعل سيجارةً من جديد، وعاد إلى شروده، وناجى:

إنك رجلٌ متجهّم، عبوس، مبتئس على الدوام، لا أنسى أبداً تقطيبة حاجبيك، كان هذا يشعرني بالارتباك، ولم أكن أملك القدرة على التحدّث معك إطلاقاً.

وأيضاً ناجى:

كنتِ امرأةً صلبة، قاسية على نفسك، وقاسية عليّ، لم يخطر في بالك أن تزوريني في السجن. إن ذلك الحرمان الذي كنتِ سببه جعلني رجلاً غير مكتمل الرجولة. لماذا، يا أمي، زرعتِ فيّ كلّ هذا الخواء الأنثوي، الخواء من الأنثى؟ لماذا أصبحت كلّ النساء بعدكِ يفتقدن طعم الأم؟

كان أدهم رجلاً ضخم الجثة، أجعد الشعر، واسع العينين، كبير الفم، أسماه أصدقاؤه: «هرقل»، لأنه كان يشبه اليونانيين من ناحية التكوين الجسماني، ولأنه كان قويّ البنية والبدن والصوت

t.me/qurssan 14%

والنظرة. كان قويّاً في كلّ شيء، قوّته الجسمية، قوّته النفسية. وكان صاحب طبعٍ حادّ، عنيفٍ، جلف، خشن.

كان معانداً، عصبياً، انفعالياً، وكان يأخذ حقّه بيده، مقاتلاً، مُعاركاً، ولكنّه على الأغلب كان طيّباً ومسالماً وخيّراً. ولم يكن يستخدم يده إلا عندما يُستفَزّ، فيتحوّل إلى وحشٍ شرس يلتهم ضحاياه.

إنه دائم الشرود، فها قد شرد من جديد. ثم انتبه إلى الدفتر الأخضر، فأخذ مكانه خلف الطاولة، ومن جديد، راح يدوّن:

في البدء كان الإنسان، ومن ثم، صار.

إني أُطلق على هذا القول تسميته: نظرية كان، أو نظرية الكينونة الأولى.

فإن ما كانَه الإنسان قد نسيه. كانَه ثم فقده، فحال إلى الحاليّ، وضاع البدء، وأصبح السائد هو ما صار إليه الإنسان، أي ما حال إليه.

إذاً، خرج الإنسان من صورته البدئية، ودخل في صورته الجديدة، فنسي أصله وكينونته الأولى، وظنّ أنه ما هو عليه اليوم هو هو. وظنّ أيضاً أنه ليس ثمة هو غير ما هو هو، فأنكر بالتالي الـ هو الأول، وتماهى في الـ هو هو، كما هو الآن.

ولكن هناك حالات، وهي نادرة جداً، تصيب النوادر من البشر، أولئك المتّسمين بسماتٍ خاصّة مثل: التحليل، التركيز، التأمّل، العمق... هؤلاء قد ينفلتون في بعض اللحظات الإشراقية من حالة الصارَ، أو هو هو، أو الكينونة الحاضرة، فتشدّهم قدراتهم الخاصّة (التحليل، التركيز...) إضافةً إلى عامل اللحظة، كما أسميتها، اللحظة الإشراقية، فيرتدّون بشكلٍ غامض، غير مفهوم، لتتلبّسهم حالة كان، بشكلٍ مباغت.

كان أدهم يُشاهَد ممسكاً بذيل ثوب أمّه، دافناً وجهه فيه، باكياً فيه، خجلاً فيه، فرحاً ملتفّاً به. ولم يتوقف أدهم عن الإمساك بذيل ثوبها إلى أن أصبح رجلاً، يتبعها أينما ذهبت. وظلّ متمسّكاً

t.me/qurssan

برأيها، كما كان متمسّكاً بذيل ثوبها.

ولا تدوم هذه اللحظة الإشراقية طويلاً، ولكنّها تترك انطباعاً غريباً، مولّدةً الشكّ والحيرة والغموض، وعدم يقينية الكائن البشري إن كان هو هو، أم هو لا هو، أو هو هو غير ما هو الآن. في هذه اللحظة، وفي قلبها، وفي أثنائها، رغم قِصَرها الزمنيّ، يدخل الإنسان حالة الكينونة الأولى، ويكاد يقترب ممّا كان عليه، أو من هو الأصليّ والحقيقيّ والأوّل والمركزي لكلّ الـ هو الحالي. يكاد يمسك بنفسه التي اندفنت في أعماق الكون، وغابت تحت طبقات الكينونة المعاصرة. حينئذ، يشعر إنساننا هذا، بهلع عنيف، يكاد يقتلع قلبه الخافق بشدّة من مكانه، فيُذعَر، ويفاجئه سؤالٌ أشدّ إذعاراً: [من أنا إذاً؟]، وتدخل الذاكرة أحياناً، فترسم له صوراً عن نفسه لم يعِشها، أو يظنّ أنه لم يعِشها، ولكن يشكّ، ربما كان قد عاشها.

شرد أدهم قليلاً، كما اعتدنا.

أشعر أنني مترفّع عن جميع الناس، أرقى من كلّ من عرفت، لذلك يجب ألا أتعامل مع أحد، لأن لا أحد يمكنه إضافة شيءٍ جديد إليّ، بل على العكس من ذلك، فربما جرّدني الآخر من كبري وكبريائي.

كان أدهم يهدّد بإحراق القرية، وكان يعبث بأسلحته على الملأ، متباهياً بها، مستفزّاً الآخرين، حاملاً عدّته القتالية معه باستمرار (سكاكينه، بارودته، عصاه، أعواد الثقاب، وقنابل أحياناً...).

عاد إلى فعله الوحيد، عاد يدوّن:

لماذا ندخل أمكنة للمرة الأولى، فيتملّكنا الإحساس بأننا قد سبق أن دخلناها؟ ولماذا نرى أشخاصاً للمرة الأولى فنعتقد أنها ليست المرّة الأولى؟ ولماذا نتصوّر أحياناً أننا قد قرأنا هذه الجملة من قبل، أو سمعنا هذا الحديث من قبل، أو حدثت لنا الحادثة الفلانية من قبل؟ ألا يعني كلّ ذلك، أنه ثمة كينونة مسبقة للمرء اندفنت بسبب تراكم الأحداث، وما عادت ذاكرته الصغيرة بقادرة

t.me/qurssan

على استجماع كلّ شيء، لذا، تنطمر الأنا الحقيقية [ما كان] تحت طبقات الـ صار، وصار، وصار و... فتكون الطبقة الأولى لـ كان، مدفونةً تحت طبقات عديدة لـ صار، صار... حتى تغيب الـ كان، وتحلّ الـ صار، إلى أن يعتقد الواحد منّا أنه لا [كان]، لأنه لم يعد يحسّ بها.

توقف أدهم عن التدوين، ثم شرد كعادته، وناجى:

لا أنسى تلك اللحظة أبداً، عندما اصطدمت كتفك بصدري وأنت تمرُّ جواري. ارتعد جسدي، انتفضتُ كلّي، لقد لامسني أبي! كم اشتهيت إيقافك! وكم أنا نادم اليوم لأني لم أفعل! كم كان ذلك جميلاً! لو أني أوقفتك، وقفت أمامك: انظر إليّ، أبي، أنا أدهم، لماذا لا تراني؟

كنت تتجاهلني، يا للآلهة، وكأني لست موجوداً! يا للعنة! كم كنت تعاملني باستعلاء ولا مبالاة، كأني ذرة غبار أمامك، كرسي، طاولة، خزانة، كأني لست إنساناً!

في اليوم السابق لوضعها، حلمت أنها تضع يرقة، ولمّا وضعت ابنها أسمته يرقة، ظنّاً منها أن نداءً سماوياً يكمن خلف ذلك الحلم، ويطالب بتلك التسمية. وتفاعل الجميع بولادة يرقة.

ولكن الجميع تشاءموا يوم ولادة أدهم، ففي عام 1905 ولدته أمه، فماتت إثر الولادة، وأوصت قبل أن تلفظ آخر أنفاسها أن يسمّوه أدهم، على اسم جدّها، فكان ذلك.

وقد أهمله الجميع، لم يهتم به أحد، فنشأ على موائد الأهل والجيران، يأكل أياماً، وأياماً يجوع، ينام جائعاً معظم الأيام، ويتشرّد في البراري، ينام في الحقول، منسيّاً، مهملاً، متروكاً.

لذلك نشأ ضعيف الجسم، هزيله. وكان مريضاً على الدوام، وعُرف بطبعه الخجول.

كان ضئيل الجثة، وجهه صغير، أنفه مدبَّب، يشبه الفراعنة. أسماه أهل القرية «فرعون» لأنه كان عنيداً، مشاكساً، صامتاً، يستفزّ

t.me/qurssan

الآخرين بصمته الماكر. فمهما تكلّم معه أحدهم، كاد لا يردّ، لذلك قيل عنه إنه خبيثٌ، وماكر، ومتآمر، ويضمر السوء للآخرين. وسمّوه بـ الحيّة الراقدة، تترصّد بهدوءٍ ودعة، ثم تؤذي.

عاد أدهم إلى شروده المعتاد، وأيضاً كان يناجي:

الوحيدة المسؤولة عن أوجاع النساء اللواتي فشلت معهن، وفشلن معي، هي أنتِ. إليك تعود المسؤولية كاملةً يا أمي. كان ذلك بسببك أنتِ، أنتِ، فقط أنتِ. كنت في كلّ مرة، ومع كلّ امرأة، أحاول استعادة شيء منك، من روائحك، رائحة ثديكِ، عرقكِ، قدميكِ، صابون شعركِ، روائح الطعام العالقة بأظافركِ، وروائح جمّة منكِ.

لم يخلق الربُّ لي امرأةً تشبه أمّي، ولم يملأني بـ أمّي. كنت خاوياً منكِ، كم كنت، كم أنا رجل شقيّ!

عاد أدهم إلى دفتره، وراح يدوّن:

نستطيع التمهيد للالتقاء بحالة اللحظة الإشراقية عندما نتخلص من مفهوم اللاشعور، وسوف أشرح هذا:

ليس ثمة لا شعور، إن كلّ شيء يتم في الشعور في تمام الشعور، بكلّ تناقضاته، أي جميع العمليات شعورية،

(آ ـ يشعر الشعور أنه مكبوت)

(ب ـ يشعر أنه منبوذ لأنه كذلك)

(ج ـ يتنكّر)

أيْ جميع العقد النفسية واعية، وسأشرح أيضاً:

من خلال مراقبتي النفسية الدائمة لسلوكي اليومي، اكتشفت أن اللاشعور ما هو إلا مخبأ يضع فيه الإنسان كلّ ما لا يريد أن يكون متهماً به أمام الآخرين، بحيث يحشر في مخبئه، كلّ ما لا يتلاءم مع حركة المجتمع ورغباته وأحكامه الأخلاقية. ويعتقد البعض مخطئين أن اللاشعور حالة نفسية قائمة، سواء أكان صاحبها

t.me/qurssan

يريدها أم لا (يولد الإنسان ويولد معه اللاشعور)، وتفسيري لـ جملة «لا أعرف لماذا فعلت كذا» هو:

يمر الإنسان بسلسلة طويلة من الأفعال والأحداث، ويسمع الكثير من المفردات في كلّ يوم. وهو غير قادر على حفظ كلّ هذه السلسلة المتواصلة من التفكير (كلّ ما يمرّ به من بلاهةٍ، عقم، عدم معرفة، أحلام يقظة، شرود، تأمّل، تركيز، إعجاب، رفض، ضيق...)، وتذكّرها. لذلك عندما يتصرّف تصرُّفاً ما، يقول: «لا أعرف لماذا فعلت كذا». فالسبب لا يعود إلى أن سلوكه كان لا شعورياً، إنما لأنه نسي السبب، لشدّة تراكم الصور التي تمرّ في الذاكرة التي لا تتسع لكلّ ما يمرّ فيها، فلا تتمكّن من الاحتفاظ بكلّ شيء، وهذا ما يدعى: النسيان الوظيفي.

كان أدهم يحب ثلاثة أشياء، كانت مصدر متعته الأزلية: المقهى، النوم، الكتابة.

وكان حلمه الأزلي هو التفرّغ الكلّي للكتابة، بحيث يجلس يومياً في المقهى ليكتب، ومن ثم يذهب إلى النوم ثالث متعه. وكان يكره ضجيج العلاقات وصخب التعامل، ويكره اللقاء بالآخرين. وكان جافّاً بشدّة مع الآخرين متمسّكاً بمقولة الوجوديين الراسخة عن الآخرين: /الآخرون هم الجحيم/.

وهو الآن يتابع تدوين المذكّرات غير عابئ بقطعي لسرده وتدخُّلي المفاجئ لتبيان ما أراه ضرورياً.

فلا أحد يستطيع متابعة سلوكه من الصباح إلى المساء:

رأيت الوردة، سألت نفسي: من أتى بها؟ إذا قلت لـ حبيبتي: إن الوردة جميلة، فستفهم أني أمدح من أتى بها. لذلك أصمت، فتذهب فكرة جمال الوردة. وحين أنام، أتذكّر الفكرة، فأحلم بالوردة، لأني لم أستطع التعبير عنها، أو لأني نسيت ذلك. ولنقم بتجربةٍ صغيرة: أن نراقب أنفسنا من الصباح إلى المساء، ونكتب عن كلّ شيء يمرّ في بالنا ويحدث معنا، مهما كان طفيفاً وصغيراً، أكان يستحقّ أم لم يكن: تلميع الحذاء، عطسة تشبه صوت

t.me/qurssan

المؤخرة، إزاحة الكرسي عن موضعه أصابني بحالة تداعي أفكار، انقطع تيار التداعي، دقّ الباب، تذكّرت أمراً، وجه هذا الرجل يشبه ممثّلاً أعرفه، عينا ذلك الشاب تذكّراني بشيء ما، نهرت القطة عن دخول الحمّام...

ولكن هذا أمرٌ صعب ومملّ ولا يخلو من أخطاء، لأنه في العمل المتواصل للمخّ لا يمكن اللحاق به وتدوين كلّ ما يخطر فيه، لأن العقل لا يتوقف عن التفكير. إذاً، ثمّة خيانات لا بدّ من وقوعها، ولكني أستطيع النصح بمحاولة المراقبة لفهم الذات، فكلّما ازداد المرء فهماً لنفسه قلّت حركة الضغط اللاشعورية، التي تُسمّى خطأً لا شعورية، وأدعوها أنا بـ سوء النية. وليس هذا المصطلح جديداً، ولكنه لم يأخذ مداه الحقيقي، المدى الذي يستحقّ، (فالرقابة تشعر بذاتها، وهي سيّئة النيّة)، لذلك تتنكّر، وتختبئ، وتهرب.

ولد أدهم بن ورقة عام 1993، كان ذكياً ومرحاً وجذاباً، له حضورٌ قويّ، فهو محبوبٌ ومرغوب، نجم الحفلات والسهرات، ورفيق السفر، همّه الوحيد هو إضحاك الآخرين، تمتّع بروح نكتةٍ عالية، كان يكره الوحدة ويتجنّبها، تعلّق به جميع الكبار والصغار من أقاربه، ونال من العناية ما لم ينله قرناؤه.

تابع التدوين:

ألخّص إذاً ما سبق:

1. ليس ثمة لا شعور، وكلّ العمليات التي يمرّ بها الإنسان شعورية وقصدية.

2. لأن العقل في حالة عمل مستمرة، يصعب ضبط كلّ ما يمرّ به الإنسان من حالات.

3. لا يستطيع جهاز الرقابة الداخلي ضبط كلّ الأحداث، فتضعف ذاكرته، وعندما ينام الإنسان تنشط الذاكرة، لأن العقل لا ينام، ومن هنا يعود العقل إلى إعادة ما رآه طيلة فترة اليقظة.

t.me/qurssan

لاقى أدهم الدلال أينما حلّ: عند أبيه، عند أمّه، أخواته، أقاربه، أصدقائه...

أُحِبَّ أدهم إلى ما لا نهاية، وعشقته معظم الصبايا اللواتي التقين به، إن لم أقل جميعهن، وقد قرّرت إحداهن الانتحار من أجله، وحاولته أخرى، وشكّل أدهم على الدوام بقعة - سوداء أو بيضاء - في حياة كلّ امرأةٍ عرفته، ولكنّه، أبداً، لم يمضِ دونما تلك البقعة.

كان رجلاً مؤثّراً غير متأثر، وكان له حضور أخّاذ، نفّاذ، ينفذ في العيون، في الجسد، عبر الرائحة، في القلب، ويستوطن هناك.

يتوقف الرجل الملول عن الكتابة، ويعود إلى شروده. يغادر الغرفة، يتأمّل ماضيه من شرفة الغرفة، ويعود لـ يناجي: منذ تسعٍ وأربعين سنة، وأنا هكذا، ملقى بحجرك السحريّ، حالمٌ بك على الدوام، امرأةً لي، امرأةً لم تكن لي. ربما تكونين قد متِّ الآن، وربما لن نلتقي بعد اليوم، ولكنّي سوف أحكي عنك، سوف أحكي وأحكي، فقد يأتي ذلك اليوم الذي أتخلّص فيه من عبء الالتصاق بحضنكِ. أمّي، أيتها المرأة التي ما منحتني ما أحتاج، أمّي، أتذكرين ماضيك معي؟ إني لا أنسى، عندما سحبني رجال الشرطة من جوارك، من فراشي الملتصق برائحة فراشك، حيث تتسلّل رائحة رقبتك إلى أنفي، وتسدّ حركة دمي، توقف دمي عن الجريان، أتذكرين؟ يومذاك، نظرت إليكِ بتوسّل، كنت أستجدي دموعكِ، غضبك، حزنك...

لم تذرفي أيّ دمعة، ومضيت، وحلم الدمعة يغتالني، لماذا لم تبكِ أمّي على مفارقتي؟ لماذا لم تحزن عليّ؟ مضيت يومذاك، وإلى اليوم، ترافقني نظرتكِ الحيادية، الجامدة، التي لا تعني بتاتاً أنك أمي، ما زالت نظرتك داخل عينيّ، تهزّني، تصفعني، تعذّبني.

أمّي... مسؤولة أنتِ عن ضعفي وعدم اكتمالي، يا إلهي، كم اشتهيت البكاء على صدركِ! وكم أشتهيه حتى اليوم!

ولد أدهم بن برقة 1939، وتعود سبب تسميته بـ ابن برقة، كما

t.me/qurssan

أوردها عالم الأنساب، إلى أن أمه كانت تربّي اليرقات وتهتم بالفراشات والحشرات الربيعية، وكانت مرجعاً ضخماً لعلماء الحشرات، وكانت تنام وعلى سريرها تتطاير الحشرات والفراشات.

وعلى العكس من أمّه، كان أدهم يكره الحشرات والفراشات واليرقات، وعندما يداعبه أصدقاؤه كانوا ينادونه: «بزّاقة» للربط بين شخصيته واهتمامات أمه، إضافةً إلى شكله الجسماني، فقد كان طويلاً ونحيلاً، قليل الشعر في رأسه، يكاد لا يظهر الشعر هناك. ومن شدّة كراهية أدهم للحشرات، كان يأكلها خفيةً عن أمّه ويقول: الطريقة المثلى للتخلّص من عدوّك، أن تلتهمه.

ولم تكن أمّه لتعلم سبب تناقص حشراتها، علماً أنها لم تكن تعثر على جثثها، بالرغم من احتياطها الشديد من القطط والحيوانات التي قد تقضي على حشراتها.

لقد كنت على الدوام رجلاً مرغوباً من النساء، كانت النسوة يتقاذفنني، يختلفن ويختصمن ويقتتلن من أجلي، تكيد الواحدة للأخرى، وعلى أدهم أن يختار. نعم، كلّ النسوة ملقيات أمامي، وعليّ الاختيار. بإشارة صغيرة من إصبعي كنت أحصل على الأجمل والأمثل والأفضل، كانت المرأة الأهمّ من نصيبي أنا.

ولا أدري لمَ كانت مواصفات الأجمل لديّ خاصّةً، لا تتّفق وصفات الأجمل لدى الآخرين. فالمرأة الأكثر جمالاً، بالنسبة إلى مقاييسي الجمالية التلقائية لا المدروسة، هي: المرأة الضئيلة القامة، المتقدّمة الفكّ، الضامرة الثدي، الغائرة العينين.

رغم أن هذه الصفات تذكّرني بشيء ما، لا أذكره، ولكن امرأةً بهذه الصفات هي الأقرب إلى نفسي وروحي.

ورقة وليس يرقة، هو الاسم الحقيقي لوالد أدهم، وكان أدهم من مواليد عام 1948، ولكن نظراً لشيخوخة الأب ورقة بن أدهم، فقد قلّت هيبته وخبت سلطته، فراح الصبيان يسخرون منه كلّما رأوه منادين: (جاء يرقة! ورقة لا يرقة! ورقة، يرقة...) حتى حلّ اسم

t.me/qurssan

يرقة التهكّمي محلّ اسم ورقة الصحيح.

وقد رزق ورقة بصبيٍّ وهو في الثمانين، عندما تزوّج امرأةً أربعينية، ثم مات بعد ولادة أدهم، بمدّةٍ قصيرة، فنشأ الولد يتيم الأب. ولكن أمه اعتنت به خير عناية، فشبَّ الولد قويّاً، جباراً، مقاتلاً، وكان محاطاً على الدوام بهالةٍ من التوفيق والنجاح، فكان يصل إلى كلّ ما يُضمِره في نفسه، وكان طموحاً، وقد اعتنت به قوّة غيبيّة، فساهمت في إنجاحه وتقديم سبل الوصول له.

ولكن المشكلة الوحيدة، التي نغّصت على أدهم سعادته، هي ميله الفطري إلى الحزن، فقد كان على الدوام رجلاً كئيباً، وقد حاول أدهم إنقاذ نفسه من تلك الحالات المفاجئة من الحزن المباغت الذي كان يأسره في غرفته أياماً طويلة، أو يطلقه في البراري والحقول بعيداً عن مخالطة الناس، ولكنّه لم يتمكّن من إنقاذ نفسه من الحزن.

كنت يا أبي رجلاً هاماً، متفوّقاً، محسوداً، أتعرف كم طمحت للتساوي معك؟! تمسّحت بك مراراً، تبعتك، تابعتك، راقبتك، قلّدتك. كنت أكرّر كل حركاتك عندما أنفرد بنفسي: وأنت تأكل، وأنت تلبس، وأنت تتكلم، وأنت تخلع ملابسك، قلّدتك في كل شيء، صادقت رجالاً يشبهون أصدقاءك، كنت أسعى دوماً للتشبّه والتماثل معك. ولكنك لم تكن تبالي، كنت تتحاشى اقترابي منك، تجلس بعيداً عني، لا تردّ على أسئلتي، لا تضحك على مداعباتي، كنت تهملني. لا أذكر يوماً أنك عاملتني باهتمام، كنت دوماً أعلى مني، فوقي، أكبر مني. وتذكر أمراً آخر.

إذا كنت قد تهرّبت من النساء طويلاً، فليس لكثرة النساء اللواتي وُجدن في حياتي، إنما لأني اكتشفت حقيقة متأخرة، أني لم أكن رجلاً مرغوباً من النساء، لقد عملت مخطّطات قد توصف بأنها دنيئة، من أجل الحصول على علاقة واحدة مع امرأة، نصف علاقة، قبلة على الأقل، أو حتى لمسة يد، ولكني لم أفلح طيلة حياتي في إقامة علاقة واحدة مع امرأة واحدة، أو نصف امرأة، أو يشبه المرأة، حتى ذلك النوع من النساء الفاحشات، أو ذوات

t.me/qurssan

السمعة السيئة، أو ذوات العاهات، اللواتي يسمَين تجاوزاً: «نساء» وهنّ بعيدات الشبه عن النساء، وجوازاً تقديرهن نساء، العرجاوات والمبتورات السيقان أو الأذرع، الخرساوات، البلهاوات...

حتى هذا النوع، لم أفلح في إقامة علاقة معه.

رجلٌ بلا امرأة، رجلٌ لم تلمسه ولم يمسّ امرأة.

وهذا ما جعلني أحتكَ بالرجال مرغماً، أمسّهم ويمسّونني، إلى أن تحوّل الأمر إلى اعتيادٍ وألفة، وانزاح عني الشعور بالاعتداء.

ففي المرة الأولى تألمت، ثم بكيت، وشعرت بحرقة في نفسي، تشبه شعور من اختُطف من حضن أمه.

واندهشت من نفسي، عندما تحوّل هذا الرفض الداخلي إلى قبول، ومن ثم، إلى متعة.

واليوم، بعد مضيِ ثلاثين سنة على أول علاقة لي، يتبيّن لي كم تورّطت. لم تكن ميولي الأصلية هكذا، إنما إحباطي من الجنس الأنثوي هو الذي جعلني أحيا طيلة ثلاثين عاماً حياةً ليست حقيقية، وليست متفقة مع ميولي الطبيعية. ولست نادماً، إذ إني اكتشفت أخيراً: أنني طبيعي...

كان أدهم يحب الطبيعة الخضراء، كان مولعاً بالعشب والبرّيّة والغابة، كان يقطع مسافاتٍ طويلة سيراً على قدميه ليذهب إلى البراري، حيث يمارس حلمه اليقظ الأولي، والأزلي، ذلك الحلم الذي يرفض أن يأتي إن لم يستلقِ أدهم على العشب. مع أنه جرّب أن يفترش فراشاً أخضر بلون العشب، لكنّه فشل في استدعاء الحلم، كان لا بدّ من اضطجاعه على العشب، ثمّ يغلق عينيه، ودون أيّ مجهود، كانت تتوالى الصور: يرى نفسه يركب على حصان كبير، فينطلق الحصان إلى بلاد بعيدة، وكان أدهم يصرّ على أنه يرى الهواء، وهو مغلق العينين، يمرّ من أمام ناظريه، وهو متابعٌ سفره السريع إلى بلادٍ نائية، تشبه بلاد الواق واق.

t.me/qurssan

إن سلوكك اللامبالي تجاهي، الصارم بشدة، وعينيك الحياديّتَين وهم يسحبونني إلى السجن، وتعلّقي بنظرة عطفٍ منك لا تأتي، وإهمالك الدائم لي، كلّ ذلك فعل بي ما فعل، فعل ما لم أتمكّن من التخلّص منه حتى اليوم.

لو تعلمين يا أمي، كم أتمنى عودة ذاك اليوم، لأعود ثانيةً إلى ترتيب الأحداث، وتغيير النتيجة، فأعود للاضطجاع جوار فراشكِ، حيث تأتيني روائحك، ثم يأتون للقبض عليَ، فأنظر في عينيكِ لألمح دمعة، أرتمي على صدرك وأبكي: [أمي، أحتاجك!]، [كن رجلاً!]. آه، لو يعود الزمن! لو تكرَّر هذا الأمر، سأتخلّص من كلّ أعبائي الحالية! ربما تزورينني في السجن لو حدث هذا ثانية، وتشدّين على يدي بقوّة.

أكنت تتألّمين مثلي؟ أم أنكِ لم تكوني بمستوى الألم، ولم يكن يشغلك ابنكِ؟ أكنت يا أمي كذا؟ أكنت كذلك...

أتصدّقين؟! أنا ابن الستّين، اليوم، وما زلت أقبع في شخصية ابن الخمسة والعشرين، وربما، ابن الخمس سنوات فقط.

أفتقدك يا أمي، أحبّكِ، أحبّ كلّ شيءٍ فيك، وسخ قدميكِ، رائحة عرقكِ، الشامة التي على خدّكِ، تشوّه إصبع قدمكِ المكسورة، أخطاءك وعيوبك، ثرثرتكِ، نزقكِ، ألامرأة مثلك عيوب؟

أنت المرأة المقدّسة، أحبُكِ، يا لَلربّ كم أحبّكِ! وكم لا توجد امرأة غيركِ في داخلي!

عاد إلى طاولته التشريحية، وراح يدوّن:

ينقسم الناس إلى ثلاث فئات: فئة مرتبطة وما تزال تحيا في الماضي. وفئة يشغلها الحاضر بتفاصيله، فلا تذكر الماضي إلا بشكل عرضيَ وطارئ، وفئة تحيا وكأنها ليست هي، بل كأنها الشخصية المستقبلية التي لم تأتِ بعد، ولم تتحقّق بعد.

فأما الفئة الأولى فهي تضم المرضى النفسيين والمجانين الذين رفضوا حقيقة انفصالهم عن تاريخهم الأول، البدئي، وهم كثر.

t.me/qurssan

وأما الفئة الثانية، فهي تضمّ معظم البشر الذين يمكن لنا أن ندعوهم بـ «العاديين»، هؤلاء الذين يأتون إلى الحياة ويرحلون، يكرّرون ما فعله الأوّلون، الذين ليست لديهم طموحات أو آمال أو قضايا شائكة تشغل فكرهم، اللهمّ إلا هموم الحياة اليومية (الطعام، الملبس، السكن، النقود والثروات...) وهم أكثر.

وأما الفئة الثالثة، فهي الأهم، هذه الفئة يقوم عليها الصراع التاريخي بين الماضي والحاضر، بين الذات المتحقّقة والذات الواجب تحقّقها، بين ما هو موجود وما يجب أن يكون موجوداً.

وهذه الفئة تشمل الفنّانين الحقيقيين، والعباقرة، هؤلاء الذين يتجاوز صراعهم الداخلي كلّ نظريّات علم النفس القديم والحديث والمستقبلي، هؤلاء هم المادّة التي يستقي منها علم النفس حداثته الخطيرة والهامّة، وهم ندرة بالتأكيد.

ولد أدهم بن ورقة عام 1966 من أمٍّ وأبٍ متسلّطين، أنشأا الولد في صراعٍ واقتتال دائم بينهما، إذ كان كلٌّ منهما يحاول فرض كلمته على المنزل، وكانا يقتتلان على زعامة البيت، وتزعّم الولد والانفراد بتربيته. لذلك كانت الأم تربّيه بطريقة، ثم يأتي الأب فيلقي تعليماتٍ مخالفة على الولد، تتعارض تماماً مع تعليمات وتعاليم الأم. وكان كلٌّ منهما شديد القسوة والعقاب إن خولف. لذلك نشأ أدهم مذعناً على الدوام، معاقباً باستمرار من أحدهما. واستمرّ أدهم على هذه الشاكلة، وتعامل مع جميع البشر بعد أبويه على أنه ثمة خطأ بداخله، إن اكتشفه الآخرون فسوف يعاقبونه، أو على الأقل، يحرمونه من التعامل معهم، يقاطعونه ويحدّون من علاقاته الاجتماعية مع المحيط.

كنت أحاول التعثّر بشيءٍ ما لأقع أمامك، فأنتبهك إلى وجودي. فأنت لم تشعر يوماً بوجودي، ولم تُشعرني يوماً بوجودي، فلم أشعر يوماً بوجودي.

تُرى، أكنت موجوداً معك حقاً؟ أبي، لماذا كنت تحتقرني على تلك الشاكلة؟!

t.me/qurssan

عندما كان ورقة بن أدهم يدخل منزله الجديد، بعد زواجه من ذات الحسب والنسب، كانت زوجته تلاحظ أنه يترك باب المنزل مفتوحاً وراءه، وكانت تقابله باستمرار بجملة ثابتة: «أتظنّه باب خيمة؟!».

وقد عاش أدهم بن ورقة بن أدهم (مواليد 1972) في جوٍّ من الثراء والترف. كان أبوه رجلاً ثريّاً وكانت أمُه سيّدة مجتمعٍ حقيقية، ومن أسرةٍ تنتمي حتى آخر جدٍّ لها إلى كبار القوم. وقد ربّته أمه على أصول التربية الحديثة، وعاملته بما يسمى المعاملة الديمقراطية، إذ كانت توفّر للولد ما يحتاجه من سبل الراحة والرفاهية. وكانت مهووسة بمتابعة الأفلام المستوردة، لمعرفة آخر ما توصلت إليه التربية الحديثة من صيحات، وكانت تراقب دوماً سويّة العلاقة التي تربطها بابنها، مقارِنةً كلّ سلوك ابنها «المراقَب بشدّة غير مشدَّدة» بما تشاهد في تلك الأفلام.

ولكن ورقة بن أدهم، كان مغرَماً بالأفلام وقصص الحيوانات، والمباريات الرياضية، وكان يؤمن بسلطة السوط، ولكنه كان يخجل من زوجته الحضارية، فلا يعلن آراءه في التربية، خشية أن تتّهمه بـ التخلف والبدائية. ولكن أدهم كان يستنتج من سلوك أبيه تجاهه أنّ ثمّة حقداً لدى الأب على ابنه، وثمة رغبة أحياناً في التعذيب والاضطهاد. وكان أدهم يتحاشى أباه ويلتصق بـ أمّه على الدوام.

كانت زوجة ورقة ذات سلطات خبيئة، كانت تتحدّث عدّة لغاتٍ أجنبية، وتستورد أثاث منزلها، وملابسها. وكانت تتصرّف بنعومةٍ وأناقة لا مثيل لهما، وكان معظم الرجال يعجبون بها. كلّ هذا أضفى عليها هيبةً ووقاراً منعتا ورقة من التدخّل في ممارسة مواهبه التجريبية في معاملة الولد، ولكنه كان يتسنّى له بعضها في غياب الأم. كان يفتح صنبور الماء البارد على الولد، ويهدّده بالضرب إن أعلم أمه، وأشياء أخرى كان يمارسها ورقة في غياب أمّ أدهم، جعلت أدهم يكره هذا الرجل ذا الرائحة النتنة، كرائحة الغنم.

t.me/qurssan

أحببت دوماً، النساء السخيفات، كنت أجد متعةً هائلة في تأمّل سخفهن، بينما أقوم ظاهرياً بتمجيدهن والإطراء عليهن. وكلّما ازداد إطرائي ازددن غباءً، وازدادت متعتي بانكشافهن أمامي، تعريتي لهن، ورؤيتي لهنّ بعمق، بوضوح. ثم أذكر تلك الدعابة الحزينة، فأضحك من الحزن وأقول لنفسي: إنها لا تشبه أمّي! / شيءٌ مُحزن.

كان أدهم يشعر بامتدادٍ نحو أبيه. وكان حرمانه من اهتمام أبيه، هو الذي جعل أدهم يتعامل مع نفسه على أنه مخلوقٌ ناقص، دون أن يحدِّد بالضبط مكامن نقصه، ودون أن يعرف ما الذي ينقصه.

لأنكِ لم تكوني لي أمّاً كباقي الأمهات، لأنكِ لم تزيلي التراب عن بنطالي، وما اهتممت بمسح جبيني بيدك الحانية [لم أجرّب ذلك، ولكن يقال إن يد الأم حانية]، ولأني لم أمتلكك على أنكِ أمي، أحببت النساء الذكيات، أحببت النساء اللا مباليات، القويّات، ظنّاً مني أني أستعيد امتلاكي لكِ، ولكنْ، يا أمي، أيٌّ منهن، لم تتمكّن من أن تشبهكِ، وكان حزني الذي أتمتّع به يؤكّد لي على الدوام:

إنها لا تشبه أمي! / شيءٌ مُفرح.

ثم راح يدوّن:

ليس ثمة شيء أخلاقيٌ وشيءٌ غير أخلاقي، القتل مثلاً، هو شيء غير أخلاقي، لماذا؟ هل جرّب القتل أولئك الذين وصفوه بذلك؟ عندما قتلتها لم أشعر أني أتيت إثماً أستحقُّ عليه الجزاء، لم أشعر أني مجرم. قتلتها، ولست بنادم، ولكني فقط مشفق عليها. أهذا أمر غير أخلاقي؟!

تسكّع أدهم طويلاً في الطرقات، قضى نسبة مرتفعة من أوقاته في التسكّع، وعاش حياة رجلٍ متشرّد، يقضي وقته في الشرب ليلاً، والتجوّل في الشوارع، كجرذ شوارع نهاراً، باحثاً عن ماذا؟ لا يعرف. لكنه يقول إنه كان يتجوّل بإحساس من يبحث عن شيء، وكان يقظاً خلال تجواله، مهتماً بما حوله، مراقباً كلّ ما يراه ويسمعه.

t.me/qurssan

لماذا كنت تعاملني بتلك الطريقة الإذلالية؟ ولماذا كلما جئتك صغّرتني وقلّلت من حجمي؟ كنت أنصرف من أمامك بلا شكلٍ، بلا هوية، شبحاً يخشى أن يراه الآخرون. كان يتملّكني إحساس [لو تنشقّ الأرض وتبتلعني!]، كي أنجو من الوقوف صاغراً، تافهاً، بلا وزن، بين يديك.

لماذا كنت تصرّ على تدنيتي وسحب الثقة مني؟

كنت رجلاً إرهابياً، أبي. تجاوزاً أدعوك أبي، ولا أشعر أنك أبي. أكرهك، أكرهك يا ورقة! ألأنك أتيت بي إلى العالم في لحظة عناق همجية، امتلكت كل تلك السلطات عليّ؟! أيُّ قانونٍ أحمق هذا الذي ملّكك صناعتي والاستمرار في صياغتي؟ أكرهك يا ورقة! حتى تلك المرأة المقدسة التي أعشقها، أمي، أكره فيها صورة عناقك، أشمئزُّ من تصوّري أنها في فراشك، أتمنى أن أذبحها كلّما تذكّرت ذلك.

أكره كلّ ما تمسّه يدك، قطّتنا وأنت تُلاعبها، السلطة وأنت تصنعها، الغسّالة وأنت تصلّحها. لن أستطيع أن أصف كرهي لك، ولكنّك أكثر من كرهت في حياتي، وتركّزت أحلام يقظتي دوماً حولك، حول استجدائك لي، طلب المعونة مني. وكم كنت تافهاً أمام نفسي! فقد كنت أغوص في أحلام اليقظة، وحين أراك مريضاً، ضعيفاً، مقبلاً على الموت، كنت أقطع حلمي، فأحنو عليك وأقبّل يديك. ثم أنتبه إلى خيانتي الكبيرة لحقدي عليك، فأكره نفسي، لأنها ما زالت غير ثابتة تجاهك.

أكرهك فعلاً، كلّ أخطائي الحالية تعود إليك، صنعتها بيديك، بذرتها فيّ أنت، حاولت التخلص من ضيقي، قلقي، خوفي، إثمي، لم أتمكّن. لقد نجحت تماماً في إفسادي، في تخريب علاقتي معي. ورقة، أيّها الرجل النائم تحت التراب، أيّها البعيد، أنت مسؤولٌ عن كلّ شيء، عن شعوري الدائم بالمهانة، بالقلّة، بعدم الأهمية.

أكرهك يا ورقة، وأكره تربتك وترابك، أكره أمّك وأمّي، وأكرهُني!

t.me/qurssan

وراح يدوّن:

عندما يتحدّثون عن مفرداتٍ محدّدة: الحب، الفقر، الانتماء...

لا أشعر بأيّ صدىً لهذه الكلمات بداخلي. كلماتٌ فارغة لا تثير سوى الفراغ ولا تحمل أي منعكسات داخلية، لا تثير أي أحاسيس ندّية موازية للكلمات.

نعم، تخلّصت تماماً، من التفسير الجاهز، والصورة الجاهزة للألفاظ.

وإلى الآن أحلم بتاريخٍ جديد، للّفظة تاريخٌ يلغي ماضيها، فتنطلق اللفظة من أسرها، تخلص من قوقعتها في تخيّل شكلٍ جاهز لفهم اللفظة.

فالبنفسجيّ يثير صورة اللون البنفسجي، ولفظة الموت تذكّرنا بالموت وطقوسه، لماذا؟

لماذا لا نقول: شمس، فنفهم أنها حبٌّ، بدلاً من أن تقفز إلى ساحة الفهم المباشر صورة الشمس ككوكب سماوي.

ينبع أدهم من وسطٍ اجتماعيّ عالي المستوى، فهو الابن الأوحد لأغنى أغنياء المنطقة.

ويجري أدهم في مجرى الحياة الفكرية والنفسية، ترفده ثلاثة روافد: القراءة - الفقر - السجن. أما مصبّه، فهو يصبّ، حتى الآن، في صيغ متعدّدة لشخصٍ واحد، وتنطبق عليه صفة [الإنسان المتعدّد الأبعاد] ناسفاً صيغة [الإنسان ذي البعد الواحد].

ابن عائلة ثريّة، ويعاني الجوع؟ أو الفقر؟ لأنه متشرد.

أهملته أمّه بعد موت أبيه، وتفرّغت لهوايتها المفضلة: الزيارات والاهتمام بأخبار الآخرين، وأهمّ أحداثهم. فترك أدهم البيت، وانصرف إلى القراءة في دور الكتب الوطنية والمراكز الثقافية. وبالمصادفة، تحوّل أدهم، من رجلٍ مقبل على قتل أخيه «بسبب خلافات الإرث»، إلى رجلٍ سياسيٍ. وبقدرة قادر، ترك الإجرام

t.me/qurssan

وأدواته: «السكّين، العصا، المسدّس»، واتجه إلى الكتب والاهتمام بالسياسة.

لقد انصرف أبناء الحي إلى السياسة، انتسب جميع الشبّان إلى حزبٍ واحد، ولو أنهم ألفّوا عصابة للقتل والنهب لاشتركت معهم. لم يكن لديّ أيّ فكرةٍ عن السياسة، حقّ الشعب، الديمقراطية... ولكن ذلك تمّ، وأصبحت، بسرعةٍ، الرجل الأهم في حلقتي السياسية، ورحت ألتهم الكتب بسرعةٍ أذهلت قادتي السياسيين. وقد قدّمت لي السياسة خدمةً عظيمة، فقد زرعت لديّ حبّ القراءة، حتى تجاوزت بالقراءة الاهتمام السياسي، وعكفت على الفكر والفلسفة، مبعداً عن ذهني فكرة الأحزاب والتنظيمات، ومؤمناً بالحرية المطلقة للإنسان.

قال لي ذات مرّة:

سيضحك من يطّلع على المسودات التي كنت أشرح فيها لنفسي نظرية ابن رشد، والغزالي...

وأكثر ما أرهقني الوجود والعدم، لم يكن ثمّة من يشرح لي، كنت أبذل مجهوداً قاسياً في فهم ما أقرأ: نفي النفي إثبات، الوجود يسند العدم، العدم إن لم يسنده الوجود يتشتّت بوصفه عدماً، ونقع على الوجود. والعدم لا يمكن أن ينعدم إلا على أساسٍ من الوجود، وإذا أمكن أن يعطي عدماً، فلن يكون ذلك قبل الوجود، ولا بعده، ولا خارج الوجود بشكل عام، بل في حضن الوجود في قلبه... أو: الوجود هو، العدم ليس هو.

كنت تعاقبني على الدوام، تخطّئني باستمرار، لم يكن لديك همّ سوى متابعة أخطائي والتبجّح بها أمام الآخرين، وأكثرهم، وأهمّهم، أمي. كنت تجعلني تافهاً في نظرها.

كلّ سلوكك السابق معي، جعل مني رجلاً بالشكل الذي أحياه اليوم، رجلاً يعاني من الشعور الدائم بالخطأ، وأنه ليس كما يجب.

لم تنفع كلّ محاولاتي في مواجهة ذاتي، ولم تتمكّن عقلانيتي من إزالة إحساسي الغامض والمبهم بالذنب، أو من إزالة كراهيتي

t.me/qurssan

نحوك.

بعض الناس يعتقدون أن أدهم إنسان طيّب، خيّر، إنسانيّ، ويتعاملون معه على هذا الأساس، وهؤلاء لم يصابوا يوماً بأذىً، أو إحباط، أو خيبة أمل من طرفه.

أما امرأته، فهي تؤكّد على الدوام: أنت أفضل شخصٍ التقيت به.

لم أكن أفهم نفسي، لماذا كنت أنفجر بوجه جدّتي؟ كنت أحبّها بشدّة، لكنّي كنت أشاكسها، رغم يقيني أنها على حقّ. كنت أنفرد بنفسي وأبكي بقوّة، وأفكر في الاعتذار منها، تقبيل يدها. ولكني رجلٌ غريب الأطوار، أُفاجأ من نفسي، كيف أتصرّف هكذا؟ كيف أؤذي مَن أُحبّ، ثم أندم؟ ومع هذا لم أكن أصلّح خطئي.

كنت أحسّ بارتباكاتٍ عديدة، كنت أشعر بالخوف مثلاً، لماذا؟ ممَ؟ لا أعرف. كانت جدّتي تنام في الغرفة التي أنام فيها، وكان يراودني حلم يقظةٍ متكرّر: أن أغادر فراشي وأندسّ تحت ساقيها، أن أعانق ساقيها وأغفو في رائحة قدميها اللتين تفوحان برائحة الصابون المعطّر، وكنت أصرّ على الحلم إلى أن أستحضر تلك الرائحة، ويتحوّل الحلم إلى شبه حقيقة، فأنام، والرائحة تسكن أنفي، ولا أتمكّن من النوم إلا هكذا، محاطاً برائحة جدّتي المميّزة.

ورغم ميولها العنيفة إلى عالم الحيوانات والطيور، فقد عشقت في أدهم ذلك الرجل الذي لم يكن يعنيه ذاك العالم. ولكنّها تمكّنت، بالحبّ، من إدخاله وإقحامه في عالمها الخاص. فراح يشاركها اهتماماتها إلى أن أصابته عدواها، فأحبَّ الحيوانات، واقتنى طيوراً وعصافير وقططاً وأرانب.

ومرض ذات مرّة لأن قطّتهما ماتت في ظرفٍ غامض.

تلك المرأة اللعينة تصرّ على تبديد أوقات راحتي. إنها تنتقي اللحظات الخاصة بي، تتصيّدها، كأنها تحاربني في أهمّ ما أملك. لحظات انسجامي مع ذاتي، عندما أكون صافياً هادئاً، منصرفاً إلى سماع الموسيقا والرسم أو القراءة، بينما أتناول مشروبي الخاص،

t.me/qurssan

تـدخل علـيّ كالقضـاء المسـتعجل، وتُخـرجني عـن حكمتـي ورصانتي.

عندما التقى أدهم بـ سلمى، أيقن أنها المرأة التي كان يبحث عنها طيلة السنين المنصرمة، تعلّق بها بشدّة، وتخلّى عن نرجسيّته في التعامل مع النساء. بل لوحظ أنه خضع لها، أصبح كالخاتم في إصبعها، تديره كيفما تشاء، أو كعجينةٍ تشكّلها كيفما تهوى. ولكنها لم تحبّه، تعاملت معه بحياديـة: وأحيـاناً، بفوقيّةٍ وقسوة، ثم تدريجياً أصبحت تشعر بالنفور منه.

وكانت الحادثة أشبه بالكارثة بالنسبة إليه. فهو الرجل المتعالي، الرافض، عندما يجد ضالّته المفقودة، تنفر منه، وتفرّ عنه.

لاحظ الآخرون أن أدهم قد أصبح رجلاً منكسراً، متكسّراً، مهزوماً، منزوياً.

بعد أن كان صلباً، متيناً، متصلّباً، عنيفاً، عنيداً.

وكالعادة، راح يدوّن:

تتضـمّن العلاقـات بـين النـاس ثلاثـة أزمنـة: الماضـي، الحاضـر، المستقبل.

أي: إمـا أن يتحـدّث البشـر فـي مـا بينـهم، عـن ماضـيهم، أو عـن حاضـرهم (ظروفـهم الحاليـة، أفكـارهم، مبادئـهم، اسـتقامتهم، شذوذهم، تكوينهم...)، أو عن مستقبلهم (أحلامهم، طموحاتهم، آمالهم...).

ولكـن، تُرى، لمـاذا، عنـدما يشـعر اثنـان بالحميميـة والتواصـل والتقارب، لماذا يكون البوح عن الماضي؟ أأشدُّ الأزمنة تأثيراً على المرء، والأكثر التصاقاً به، هو ماضيه؟!

ثم راح يدوّن أيضاً:

إن المعرفـة الصـميميّة لأيّ إنسـان، هـي إسـهامٌ، وهـي جزءٌ مـن المعرفة الكلية. والمعرفة الكلية هي المعرفة الموزّعة عبر الأجيال

t.me/qurssan

الإنسانية المتوالدة باستمرار، ووقف كلّ معرفةٍ جزئية عند حدّ الجيل، ثم انتقالها إلى جزءٍ آخر في حدّ الجيل الآخر، واستمرار كلّ تملّك الجزئيات، إن كانت صميميّة، تشكّل أخيراً المعرفة الشمولية المطلقة.

يعتقد عددٌ غير قليل ممّن عرفوه عن قربٍ أنّه رجلٌ خسيس، نذل، قذر... أو باختصار: رديء.

وهؤلاء يدينونه بشدة ويبرهنون على رداءته بارتكابه قتل صاحبة المنزل، لسببٍ سخيف وتافه: مطالبته بأجرة المنزل. ويقول هذا الطرف عن أدهم: إن الرجل الذي يقتل امرأة، ثم يذهب إلى النوم وكأنّه قتل صرصوراً، ثم لا يحلم بأيّ أحلام سيّئة، هو رجلٌ سيِّئ، ويحتاج الزمن إلى التخلّص من هذا النوع من الرجال.

كنت أحبُّ، على الدوام، النساء العاديات، وكنت أكره، على الدوام، النساء المثقفات، هذه الفئة الثرثارة من النساء، اللواتي يتحدثن عن أنفسهن، ولا يهمّهن شيءٌ في العالم سوى أن يكنّ موجوداتٍ ومحبوبات ومرغوبات، هذه الفئة التي لا يعنيها الآخر، لا يعنيها سوى ذاتها.

يعتقد طرفٌ آخر أن أدهم، الذي مرض لموت القطّة، إنما هو رجلٌ حسّاس وصافٍ ونقيّ، وأن قتله للمرأة لا بدّ أنّ له تبريرات، ومن منّا لا يخطئ؟!

لم تكن أمّي امرأةً مثقّفة، كانت امرأةً عادية، ولكنّها كانت حضاريّة، امرأة لا تملك سلطة، لا تستخدم سلطة، امرأة لا تلغي الآخر، امرأة تتيح الآخر، تظهره، تساعده، باختفائها، على أن يكون، لا لأنها كانت لا تملك تلك السلطة، بل لأنها، لم تكن تريد أن تملك تلك السلطة، لم تكن تريد إلغاء الآخر، ولا لديها جنون الظهور.

أمّي لم تكن تتحدث عن نفسها، ولا تعنيها نفسها، وأشكّ فيما إن كانت تفكر في نفسها، ولم تكن لتقسم أفكار البشر إلى مستويين:

t.me/qurssan

الانتصار والهزيمة، لم يكن يعنيها أن تكون منتصرةً، برأي الآخرين، ولا أن تكون مهزومةً، حسب رأيهم.

ربما كانت أمي تفهم هذين المفهومين داخلياً، فالانتصار ليس هو التفوّق على الآخر، من وجهة نظر الآخر، إذ قد يكون الآخر ضعيفاً فيراك منتصراً، وقد يكون ضعيف الرؤية، أو عديمها، فيظل مهزوماً. أما ذلك النوع الحديث من النساء، النساء الحديثات، فإنهنّ مُملّات، ويهدفن إلى نقطةٍ واحدة، أن تعترف لهن بالتفوّق، بالتميّز، والاختلاف، والتغاير.

تقبع في رأس كلٍّ منهن فكرة [المعركة]، فالمعارك الفكرية [أو اللغوية] إما نصر أو هزيمة... إما أن تقنع برأي تلك المرأة، وإما أن تعدّ نفسها خاسرة.

أما أمي،

فيا إلهي!

أمي... امرأة أقلّ من عادية.

أمي متسامحة، متساهلة.

أمي تغفر، تحتوي، تستوعب...

أمي تمنح.

لم تكن تريد أن تثبت أنها الأقدر والأقوى، لم تكن امرأة مثقّفة، لم تقرأ كتباً البتّة، أما هنّ، فقد قرأن الكتب ولم يقرأن ذواتهن.

وأمي، دون أن تريد، ودون أن تحاول، كانت بالنسبة إليّ، الأقدر، والأقوى، والأكثر ثباتاً في داخلي.

كانت لأدهم تقنية خاصة في نومه، فقد كان يرى أحلاماً سيّئة ومخيفة. لذلك فقد راح يسند يده على أيّ شيءٍ مرتفع عن جسده، يضعه جواره (كرسي، طاولة، طربيزة...)، كي يتمكّن من إيقاظ نفسه بحركةٍ من يده عندما تداهمه الأحلام المرعبة. وقد أفلح أدهم في تقنيته تلك، فاستوعبها من أعمق أعماقه، وأنقذته

t.me/qurssan

من الأحلام، حتى تحوّل إلى رجلٍ لا يحلم.

ثم راح يدوّن:

أن أكون مختلفاً، كان هذا هاجسي.

وشرد قليلاً:

عندما سمعت صوت ارتطام، استدرت على الفور، كانت صاحبة المنزل تهمّ بحمل سطل الماء. ما إن أمسكت بالسطل من مسكته الحديدية، ورفعته، في تلك اللحظة بالضبط، عندما ارتفع السطل عن الأرض، بدا لي كأنها حملت شيئاً من داخلي، فغادرني ذلك الشيء والتصق بالسطل، أقصد سطل سلمى ابنة عمي، فقد كانت تسقي الزرع في حوش عمّي الواسعة، الحوش المزروعة بأنواع الورد كافة، وبعض الأشجار المثمرة. وعلى الفور امتلأ فمي بطعم الفاصولياء المحشوة بالثوم الكثير. أعادني سطل صاحبة المنزل إلى السطح، السطح المضاء، كما كنّا نسمّيه أنا وسلمى، حيث نستلقي في الليل، ونعدّ النجوم التي تضيئه، ويختار كلٌّ منّا نجمةً يسمّيها باسمه. كانت القرية مظلمةً بشدّة، وكان العائدون من سهراتهم يحملون الفوانيس، بينما أنا وسلمى نحظى بالضوء من النجوم، وكأنها شمعاتٌ أو فوانيس مدلاة من أجل سهرتنا وقصصنا التي لا تنتهي حتى يخدع أحدنا الثاني بأن يغفو أثناء حديث الآخر، إذ كان كلٌّ منّا مهتمّاً بأن يقول ما يخطر في باله من قصص وأفكار وآراء، دون أن يهتمّ بما يقوله الآخر.

استدار أدهم إلى غرفته الداخلية، وكان من عادته أن يدير ظهره إلى محتويات الغرفة (داخل الغرفة) ويقف على الشرفة، أو على النافذة، عندما يشرد ويتوقف عن الكتابة، وحين ينتهي فعل الشرود، كان أدهم يعود بنظره إلى داخل الغرفة، ويصبح الماضي خارج الغرفة، يصبح (الماضي) فعلاً خارج المكان.

فكأن الداخل (داخل الغرفة) هو داخل النص، أو هو التقنيّة الحيادية للنص، ومنها يعود أدهم إلى التدوين، وما أراد تسميته بالسِّيرة.

t.me/qurssan

ولأن هذه السيرة لم تكن سيرتي أنا، فقد قرّرت طباعتها تحت عنوان مخالف لـ السيرة الذاتية. وقد فكّرت في التسمية المعاكسة لـ السيرة الذاتية والتي تنطبق على أدهم لا عليّ، فاعتقدت أن كلمة السيرة الموضوعيّة تنأى عن هدفي، أو عن دلالتي على السيرة المنطبقة على الغير، الآخر، أدهم بالتأكيد.

وعندما توصلت إلى سيرة الآخر، تبيَّن لي أن كلمة السيرة الذاتية كان يجب أن تكون «سيرة الذات». فالمُهمّ هنا هو التأكيد على الذات في فعل السيرة، وليس التأكيد على السيرة كسيرة. إذاً، المهمّ سيرة الذات، لا السيرة الذاتية التي تُعنَى بالسيرة بدءاً، ومن ثم بعلاقتها مع الأنا المتصلة، فتصبح آنئذ سيرة ذاتية.

كنت أقول، إذاً: إنه - أعني أدهم - استدار إلى غرفته الداخلية، تاركاً تقسيماتها الخارجية اللا مرئية معلّقةً في الفضاء وممتدةً نحو الماضي. ثم عاد إلى قلمه وراح يدوّن:

تخيفني الوحدة. بالتأكيد أنا المسؤول عن وحدتي، لأني لم أستطع التفاعل مع الآخرين. كان الآخرون يعنون لي على الدوام تلك العين المراقبة، واللسان الثرثار، العين التي لا ترى الأشياء الصحيحة، والتي ترى الأشياء خاطئة، واللسان الذي لا ينطق بما يجب، بل ينطق بما لا يجب. إني معجَب بنفسي، وهذا حقّ، ولست مغروراً أو نرجسياً، ولكني أشعر بالتعالي، ولست أفتعل هذا الإحساس، فطالما تبيّن لي، لدى مقارنة نفسي مع الآخرين، كم كنت أعلى، وكم كانوا أدنى.

ليست عادتي احتقار الغير، إنما أعتقد أني أقرّ بالحقيقة، فإن لدى أدهم ميزاتٍ لا يعدّها الغيرُ ميزاتٍ. ولأني سئمت، فلن أتحدّث عن هذا الأمر. ولكني سأصل فوراً إلى النهاية، إنني كائنٌ مختلف. أما عن الوحدة فسوف أكتب عن هذا الآن، فطالما شغلتني وحدتي هذه، المشكلة الوحيدة، التي أعيشها لدى انفرادي بنفسي، هي كثافة الأحلام، فأنا رجلٌ مصاب بالأحلام، طبعاً أعني أحلام اليقظة، أشرد طويلاً، وأحلم:

قارئ، صحفي، مصوّر، مصارع، حاكم، طالب، معلم، أب،

t.me/qurssan

زوج...لذلك أخاف وحدتي، ولا أخاف العزلة، ولا يهمّني الآخرون، ودورهم منحصر في إقصاء أحلام اليقظة عندما يوجدون، ويؤكدون بوجودهم شرط الوجود الفعلي، لا وجود معطيات الحلم.

كم كنت أحتاج إلى اهتمامك! فعلت كلّ شيء لجعلك تهتمّين، مرضت، ضعفت، تفوّقت، ولم ألفت انتباهك. كان يجب أن تعرفي، يا أمي، أنك وراء كلّ ما فعلت، إليك فقط يعود سبب تركيبي هكذا، وأني على هذه الشاكلة.

كان أدهم رجلاً متقلّباً، يحبّ ثم يكره، ثم يعود ليحبّ، ويكره من جديد، ولم تكن عواطفه وأحكامه ثابتة أو مستقرّة.

إن هذه الحياة مثل لعبة الكلمات المتقاطعة، تقطع الكلمة لتضعها في عمودها الصحيح (أو تقطع الفعل لتضعه في مكانه الصحيح). وإن لم تنظر إلى العمود بكامله، أصبحت الحروف (المتقطعة) بلا قيمة ولا معنى. كأن هذا يعني، أنه لا معنى للأحداث التي مرّت بي فرادى، إلا ما كوّنته من شخصية حاليّة أحملها اليوم. أما ما عدا ذلك، فقد حدث كل ما حدث بمجانيّة، نعم، حدث بمجانيّة.

أنت المرأة التي لم أنسَها لحظة، أحبُّك، أحبّ صمتك المتكلم، صمتك المتحرّك، المملوء حكمةً وفعّاليّة.

ودوّن قليلاً:

المعرفة الحقيقية جزءٌ من المعرفة الكلية، فالإنسان جزءٌ من الله، وقد وضع الله معارفه في سلسلة متوارثة من البشر، يورّث كلٌّ منهم المعرفة إلى الآخر. والمعرفة هكذا، تصبّ، عندما تكتمل، في مكان نبوعها، في الله.

ولطالما كرهتها، كرهت ثرثرتها الدائمة، كانت تحكي عن كلّ شيء، وعن أيّ شيء، أشياء تافهة ومملّة، وتكرّر ما تقول آلاف المرات. وعندما لا تجد من تتحدّث إليه، كانت تحدّث نفسها بصوت عالٍ. أمّي امرأةٌ سخيفة، صرت بسببها رجلاً غيرَ سويٍّ، يكره جميع النساء.

t.me/qurssan

دوّن جملةً واحدة:

كلّما كان فعلك ناتجاً منك، مستغنياً عن الآخرين، مهملاً دورهم، وتدخّلهم ورأيهم، كان ينمّ عن اقترابك من شخصيتك الأساسية، الحقيقية، الأولى.

وكان أدهم رجلاً مفرطاً في المثالية، كأنه يعدّ نفسه مصلحاً اجتماعياً، فقد كان حلّال مشاكل أولاد الحارة، عُرف بشهامته ورجولته ومواقفه الذكيّة وحلوله الفعّالة.

لجأ إليه معظم أهل الحارة لفَضِّ خلافاتهم، وكان رجلاً عادلاً، أحبّه أهل الحيّ، كان يفكّر في الناس أكثر مما يفكّر في نفسه.

كان ينام ومشاكل الناس لا تزال تشغله، يقفز من سريره كالمجنون عندما يتوصل إلى حلٍّ في نومه.

أحبَّ أدهم الناس، وكانت له جملةٌ شهيرة: [أنت تحبُّ نفسك، يعني أن تبرهن على ذلك بحبِّ الآخرين]. وكان يعتبر الذات الفردية جزءاً من الذات الإلهية، ومجموع تلك الذوات الفردية يشكّل الله، لذلك اهتمّ أدهم برعاية الذوات الفردية حامياً بذلك السرَّ الإلهيّ الأعظم.

كنت أكره أمّي بشدّة، لذلك كرهت كلّ النساء البدينات، مثلها.

أشعر أحياناً بعجزي عن قيادة نفسي، أشعر أني لا أستحقّ أن أكون داخل نفسي، وأن أحمل هذه الذات الهامة، إني أستكثر على نفسي أن أكون حيّاً، مزوَّداً بحواسّ وجسدٍ وخيال. وأنا لا أتقن استخدام ذلك، آه! أحياناً أحلم بشخصٍ يمسك بيدي ويفعل عني كلّ شيء، يحمل عبئي عني.

أيصدِّق أحدٌ أني أعتقد نفسي بأنني عربة؟! فأنا منقادٌ على الدوام، كأني عربة، ولست على الإطلاق حصاناً يملك الطريق.

أتذكّرك وأنت تلعبين بخصل شعري، تُجلسينني على ركبتك وتغنّين لي: «نيّمت ابني بالعليّة، خفت عليه من الحيّة، هزّيلو يا

t.me/qurssan

بهيّة، بلكي على صوتك بينام».

كنت تحتوينني، تفهمينني، كنت ذاتي الثانية، الخبيئة، كم كنتِ لي! كنت لي بكلّيّتك، كلّك لي، أنت لي، ما أعظم هذا! أمي لي!

القوة هي أن تأتي متى تريد، وتغادر حينما تريد، أن تدخل الآخر في حالتك، لا أن تدخل في حالة الآخر، أن تختار الآخر، لا أن يختارك الآخر.

عندما رأيت عمّي مشلوحاً أمامي على الرصيف فجأةً، ارتعدت، التقت عيناي بعينيه الزرقاوين، ما كان أمامي مجالٌ للتهرّب، لتحاشيه، كان يحدّق بي بشدّة، كأنه اكتشف تواطُئي، فقد كنت أتهرّب من أقاربي عندما ألتقي بهم، كنت أكرههم، أكره أقارب أبي أكثر. للمرّة الأولى في حياتي تدخلني نظرةٌ كهذه، تخترقني، تبني أعشاشاً في قلبي وذاكرتي، تلحّ على ألا أنساها. كانت عيناه مدوّرتين، زرقاوين بشدّة، صافيتين، التقتا مع عينيّ الخجولتين الغائرتين، المعكّر بياضهما، فاهتززت بعنف، عادت الأشياء دفعة واحدة من الماضي ورقصت حولي، امتلأ الرصيف بضجيج الماضي، انفلت رباط مخيّلتي وانفرطت محتويات الكيس، لقد حلّت عيون عمي رباط الكيس، فانفجرت الذكريات، رأيته على الرصيف قبل عشر سنين، أجلس على ركبته حتى أنام، وكان يغنّي لي بصوت حزين يبعث على الرقاد والرغبة في النوم.

ولد أدهم عام 1952، كان يبدو أصغر من عمره، بعشر سنوات على الأقل، نظراً لضآلة جسده، لذلك كان يتأكّد لديه إحساس أنه زائد، وأن لا أهمية لوجوده. كان يدخل ويخرج دون أن يلاحظه الآخرون، ولم يكن أحدٌ يقدّم القهوة له عندما يزوره، وكأنّ أدهم غير مهمّ، أو زائدٌ يجب استئصاله، لذلك فقد استأصل نفسه من حياة الآخرين، وانزوى.

عندما كنت أسمع صوت قعقعة سطل الماء النحاسي وترجرُجه طويلاً، وأسمع صوت دلو البئر وهو يرتطم بسطح الماء، ثم يرتطم بجدار البئر، كنت أرمي عنّي غطائي الصوفي اللذيذ.

t.me/qurssan

دوّن أدهم:

ساهمت القوانين الوضيعة دوماً في إلغاء الضعيف لصالح القوي، وكرّست نظرية العبد والسيد، فكان الإنسان أبداً هو العبد، وبقيت التشريعات هي السيّدة. لقد وضعت القوانين والتشريعات لقمع الخلق، لقمع الحياة، لتقيّد الحياة، ولتحدّ من المتعة والحرية.

حيث كنت أنام تحت شجرة التوت، وحوليَ تنتشر شجيرات الياسمين، كانت ثمرات التوت تتساقط على فراشي، وكنت أتقن تغطية جسدي، من رأسي حتى...

كان أهل الحارة يستعينون به في الأعمال الشاقّة: «هدم، بناء، حفريات، نقل أشجار...»، نظراً لقوّته البدنية، ويقولون عنه: «أدهم يأكل العمل الشاقّ أكلاً».

كان يدوّن قليلاً ويشرد قليلاً:

أن نحيا يعني أن نتمتّع، وقد منعت القوانين المتعة، أي أنها تمنع الحياة، ولن آتي بأمثلة على هذا. ومن مكانٍ ليس ببعيد، كانت تأتيني رائحة روث حمار أبي المدلّل، أعني الحمار لا الروث، وكنت أقلّدها - جدّتي - أملأ دلو الماء، كما تفعل، وأتبعها، تتوضّأ فـ أتو...

يحكم العلاقات البشرية قانون السيّد والعبد، وعليك أن تختار، أن تكون سيّداً يعني أن الآخرين عبيدك، أما أن تُسيّدهم فهذا يعني عبوديّتك، وليس ثمة علاقة يكون طرفاها سيّدَين... فانجُ!

وأتبعها إلى غرفة الطحين، حيث الأرض بيضاء وسوداء، انتشرت ذرّات الطحين على الأسمنت الأسود، وعليّ أن أدخل حافياً كي لا أدوس النعمة، ولا أنسى سبب تحوّل القرد، إذ كان إنساناً، ولكن المرأة مسحت مؤخرة ابنها بالطحين، فحوّلها الله إلى قردة، ومن هنا جاءت سلالة القرود، حسب قصّة جدتي. كنت ألتقط فتات الخبز، أبوسها وأضعها على رأسي، وآكلها، كي لا يغضب الله عليّ فيحرمني نعمته، كنت أفرش سجّادتي، أتمتم مثلما تتمتم.

ليس ثمّة شيءٌ قبيح وشيء جميل، لا شيء خير ولا شيء

t.me/qurssan

شرير. ثمة ما يناسبني. وما لا يناسبني، وأنا لا أكذب ولا أقول عمّا لا يناسبني إنه شرّير، قبيح، غير أخلاقي، بل أقول: [لا يناسبني].

[بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله رب العالمين، الرحمن الرحيم]. كانت تُتمّ صلاتها في الغرفة المحشورة برائحة الطحين وأكياس البرغل والسمّاق وصفائح الزيت، وكانت بارودة جدّتي تحمي خيال جدّتي، كانت معلّقة على الجدار وقد كساها الغبار.

بالقدر الذي تستطيع فيه أن تعقّ والديك، يمكنك التأكّد من نجاحك المستقبلي، وبالقدر الذي يمكنك فيه الإفلات من تاريخك، يمكنك خلق تاريخٍ جديد لك، تصنعه كما تريد، لا كما هو.

تنتهي خيالاتي وتأملاتي وذكريات قفزي في كروم العنب والتين، وحقول القمح والعدس، وتمارين الرياضة على طريق الإسفلت المعبّد حديثاً عندما تنطق جملة [السلام عليكم ورحمة الله] مرّتين.

كنت أكره الاحتكاك بالآخرين، كرهت الشخصية القتالية، العراكية، الصدامية، رفضت مجرّد الحوار معهم. فالحوار يعني بالنسبة إليهم النتيجة، دون النظر إلى فحوى الحوار. النتيجة: الربح، أو الخسارة، فإما أن تقنع محاورك بفكرتك وإلا فأنت فاشل. إنها معركة لا تختلف عن معركة الأيدي والأقدام، وليس المحاور هنا بأقل همجيّة، إنه فعلٌ غير حضاريّ يستعمله متحاورٌ يغلّف لا حضاريّته تلك.

بعد أن تُنهي الصلاة، كانت تتجه إلى الزريبة حيث تعتني بالحيوانات، ولا أعرف لماذا كان هذا المكان محبّباً إليّ، ولماذا كنت أذهب إليه كثيراً.

لحوار وسيلة قتالية حديثة، نحن لم نتوصّل إلى عيش تجربة لحوار بحقيقته، الحوار دون النتائج المسبقة، قبول الآخر، محاولة فهمه.

حوار يعني الاحتكاك بهؤلاء الغوغائيين، السفلة، أو كما يدعوهم

t.me/qurssan

نيتشه: السوائم البهماء، لذلك كنت أعشق عزلتي، أتعامل مع الآخرين عن بعد، فأن تكون حضارياً يعني أن تبعد عن القتال الذي يضطرّك إليه الاحتكاك بالبشر، وقد دوّنت على باب غرفتي جملة نيتشه التالية:

الرجل القويّ رجلٌ وحيد .

كانت أمي تندهش، كيف أقرأ في الزريبة، كانت أمي طيبة وحنونة ودافئة، كانت تشبه غرفتنا الدافئة بينما كان الجوّ في الخارج بارداً ومظلماً، وأنا أتناول حساءً ساخناً، ثم أشرب شاياً ساخناً، كانت أمي تزيل كلّ عوامل البرودة والحزن والقلق بدفئها الساخن الحنون.

أتندهشين لأني أقرأ في الزريبة؟! إن هذا يؤمّن لي العزلة الحقيقية، حيث لا يخطر في بال أحد اقتحام عزلتي وإقلاق راحتي. وهكذا يا أمي، عشت رجلاً منزوياً، منعزلاً، وتوصّلت إلى صيغة:

كلّما ابتعدت عن الآخرين، وأحكمت إغلاق أبوابك، ضمنت سلامتك الداخلية والخارجية. الأخرون رياحٌ مسمومة تحاول اقتحامنا.

[أدهم، اعتنِ بنفسك يا بنيّ، الزريبة مظلمة!].

سأصفها لكم:

بعد الباب مباشرة، ثمّة درجاتٌ منخفضة الارتفاع، تكاد تنعدم المسافة بين كلّ درجةٍ وتاليتها، درجٌ رطب، لزج، زلق، يلصق بالقدم ولا يزحلق. وكان يتحتّم عليّ السير طويلاً على درجات طويلة حتى أصل إلى الزريبة تحت، في قاع القاع، وهناك تكون الأرض أكثر رطوبةً ولزوجة وعتمة، واسعة، رائحة الرطوبة غير مزعجة، رائحة منعشة. وهناك، في القاع، علّق أبي مصباحاً كهربائيّاً شحيح الضوء، يكاد لا يضيء إلا نفسه ويعلن بصوت ضعيف عن وجوده.

t.me/qurssan

أجل يا أمي، الآخرون رياح مسمومة تحاول دخولنا، ونحن النوافذ التي تسمح، أو لا تسمح، بدخول الرياح. كذلك يا أمي، أغلقت نوافذي بإحكام، ومنعت الرياح من دخولي، فكنت يا أمي أحيا، دون انفعالات، دون عواطف، دون آثار، حياة غير إنسانية، حياة جديرة بمكتبة أو بجهاز آليّ. وهكذا يا أمي صرت كما آلت إليه نفسي الآن، وحيداً، يحيا ويموت، يموت ويحيا، دون أن يلاحظه أحد.

كنت تلحقين بي من بيتٍ إلى بيت، تقتفين أثري، للإمساك بي، ثم لضربي. يا للرعب، كم كان ضرباً مبرحاً! كنت تشدّين شعري وأذني، وتركلينني بقدميك في بطني وبين فخذي وعلى ظهري، وتبصقين عليّ... كم كنت امرأة إرهابية! أتذكرين؟ يا لمرأة المدعوة أمي! أتذكرين مشاهد العنف التي صوّرتها معي؟! جعلت مني أضحوكة أمام الحارة، كانوا يسخرون مني، كنت تتحدثين عن أخطائي وعيوبي أمام أهل الحارة، تشتمينني، وترمينني بحذائك كلّما مررت من أمام مجموعة كنت أحد أفرادها.

الإنسان كائنٌ متناقض، مجموعة أحاسيس وخبرات، والخبرات ذاتها متعارضة، تولّد أحاسيس متناقضة، وليس ثمة إنسانٌ غير متناقض، إنسان صحيح، سويّ، مستقيم، واضح، محدّد، إلا إذا كان يفكّر أكثر مما يحيا.

كان أدهم في معظم الأوقات يدخل على أمه مضروباً، يكون رأسه قد شُجَّ وسالت الدماء على وجهه. كان أولاد القرية يصنعون منه تسليتهم، الكلّ كان يضرب أدهم، لذلك فقد نشأ منطوياً على نفسه، خائفاً، متوقّعاً الإساءة من الجميع، وعندما كان أحد يريد الهزء بالآخر كان يسمّيه «أدهم»، نظراً لجبن أدهم وخوفه من القتال، وبكائه السريع، وهربه إلى أمه.

لكي تكبر، عليك ألّا تحتكّ بالآخرين، فالاحتكاك بالآخرين يُصغِّر.

كنتِ تجذبينني من شعري، وأنا ألحقُ بك باكياً، تسحبينني أمام أنظار الجميع، وهم ساخرون، شامتون، مرحون، يتسلّون بمشاهدتنا اليومية، ثم ترمينني في فراشي، وترمين فوقي

t.me/qurssan

الغطاء مواصلةً شتائمك وسبابك، فأغطّ في نومٍ عميق، من التعب والإرهاق، ويعلو شخيري، وحين أستيقظ كنت...

إني أعتقد أن فكرة الحبّ هي أكثر ما شغلني طيلة المئة سنة التي حييتها، ما زلت مؤمناً حتى هذا العمر أن الحبَّ أكبر دافع للنجاح والتفوّق. وقد أحببت نفسي كثيراً، لأن شرط حبّ الآخر، أن تحبّ نفسك، فمن لا يحبُّ نفسه، لن يحبَّ الغير.

كنت أهرب من فراشي، وحين أصبح خارج المنزل، خارج حدود سلطتك، بعيداً عن إمكانية إمساكك بي، كنت أجمع حجارة القرية، أملأ جيوبي، وأضرب بابك، فيستيقظ الجيران على صوتَي صراخك وارتطام الحجارة بالباب، وكنت أصرخ بأعلى صوتي: سأنكحك يا أمي! وأنكح كلَّ أهلك، أمّك، أختك، أبوك...

ولد أدهم عام 1985، وكان شخصاً ذكياً، ذا خيالٍ خارق، متفوّقاً في دراسته، محبوباً من أهله وجيرانه. كان جميل الوجه، وسيم الطلعة، ذكيّ التحدّث، لطيف المعشر...

كنت أسأم الحياة اليومية، الناس العاديين، العلاقات التقليدية، الأحاديث السطحية، الحوارات الباردة، التكرار والسطحية في كلّ شيء: الطعام، الذهاب إلى الحمّام، النوم، الزيارات...

وكان أكثر ما ينقذني من ملالة العاديّة، هو خيالي. كنت ألعب لعبة التخيّل، فأكون معهم ولا أكون، إذ ينقذني شططي الخيالي، أو خيالي الذي يشتطّ، بعيداً.

كان أدهم يقفز على كرش أبيه ويشتمه بأشدّ الكلمات بذاءةً، يخلع سرواله ويركض عارياً في الأحياء الراقية مستفزّاً حكمة أمه الصابرة، الهادئة، الخجولة.

كثيراً ما أنقذتني أحلام اليقظة من ملالة الأحاديث العادية، وكان يحبّ أخته وينام في رائحتها. «ليت رائحة أمي مثل رائحتك!».

لماذا تريد ذلك؟ تستطيع أن تنام عندي دوماً.

لو كانت رائحة أمي هكذا، فسأنام عندها دون أن ترفض، أما أنت

t.me/qurssan

فلن توافقي دوماً على نومي عندك.

سأجعلك تنام عندي في كلّ ليلة.

أحبُّ رائحتك. وأحبّ اللعب بشعرك الطويل قبل أن أغفو.

ولكنّها لم تكن تحقّق وعدها، إذ سريعاً ما توقظه في الليل: «اذهب إلى أمّك! أنت ترفس ولا تدعني أنام، لقد كسّرت ظهري!».

كان أدهم يكره أبيه، ولكنّه، مثله، لم يكن يتحدّث إلا بصوتٍ يشبه الصراخ و...

كان أبي وأمي يتحدثان بصوتٍ مرتفع طيلة النهار، وكأنهما تفصل بينهما مسافات بعيدة، وتقول أمي: أبوك يتحدّث كالأقرع! وكنت أسأل نفسي: هل الرجل الأصلع ضعيف السمع؟ وما علاقة الشعر بالسمع؟ ولكنها كانت تتحدث كالقرعان أكثر منه و...

ثمّة ذوات عديدة ومتعدّدة داخل الكائن الإنساني الواحد، ومحاولة التوفيق بينهما أمرٌ مستحيل، يوصل صاحبه - إن اكتشف كافة وجوه التعدد - إلى هاوية الجنون، وحافة الهلاك، لذلك...

كنت أبول في فراشي، وأصحو من نومي مذعوراً من مفاجأة البلل، وخوفاً من عقاب أمي. كنت أهرب، وكانت أمي...

لذلك يحيا المرء عدّة حيوات داخل الجسد ذاته، الجسد الذي...

وكانت أمي تقتفي أثري، تتعقّبني حتى تعثر عليَ، تُحضرني عنوةً إلى الحمّام، وكنت أشتمها بأخواتها، ذاكراً اسم كلّ واحدة بالتفصيل...

الجسد الذي يخفي عدداً هائلاً وخفيّاً ومجهولاً من الذوات، كلّ ذاتٍ منها لها سيرة حياتية مستقلة، عانت كلّ ذات ما عانته، وما لم تعانِه أخرى، ولم تعانِ كلّ ذاتٍ ما عانته أخرى،

أكره أمي، ولكن لا أتمنّى أن تموت، أتمنّى فقط أن يموت أبي.

t.me/qurssan

وعندما يموت الإنسان، فإن معظم ذواته، وأكثرها، تكون غير متحقّقة، ولم يكتب لها الظهور والانكشاف، لأن حياة الإنسان قصيرة بالمقارنة مع عدد الذوات المتضمّنة داخل هذا الإنسان.

كان موت أبي، هو الأمنية الكبيرة، والتي لم تتحقّق.

تحيا الذوات غير المتحقّقة، وغير المعلنة، وغير المعروفة من قبل صاحبها أو من قبل الغير، كالعشيقة السرّيّة لرجلٍ تهمُّه سُمعته.

كانت صاحبة المنزل تتدخّل في شؤوني، تتلصّص عليّ، تحاول النيل من كرامتي، تحتقرني و...

هل تعتقد أنك ذكي ويمكنك أن تضحك على الناس؟!

.....

عليك أن تتأكّد أنك لن تفلت مني. أريد نقودي الآن!

.....

أيّها اللصّ، لماذا لا تردّ؟

«لماذا يعاملني الجميع باحتقار؟ لماذا لست موجوداً أمامهم؟»

أيّها اللصّ، أنت المدعو أدهم، أجِبني، أريد نقودي!

«كنت أظنّ نفسي رجلاً ضعيفاً، وكنت أعامل نفسي بمزيدٍ من الاحتقار، لأني كنت متأكّداً أني لم أكن أثير اهتمام أيّ شخصٍ آخر».

كانت رسالة سلمى على الطاولة، فتحها وأعاد قراءتها للمرة الـ...

دع الرسالة من يدك واسمعني!

أحبُّك! أقولها لك أمام العالم. أنت رجل حياتي كلّها، ماضيّ وحاضري ومستقبلي.

أقول لك دع الرسالة واسمعني!

t.me/qurssan

«كان الجميع يتعاملون معي بحيادٍ شديد، أو لا يتعاملون، كأني لست موجوداً، لم أكن أثير اهتمامهم، لا سلباً ولا إيجاباً. كم كان ينتابني الإحساس بأني زائد، كالزائدة الدودية! لذلك كنت أفكّر في إيلامهم، ربما يحسّون بي. فليستأصلوني إذاً! على الأقل يحسّون بوجودي. كم كنت أشعر بالمهانة! لكن سلمى، يا لكِ من امرأة غيّرت عالمي، فرشته بالحنان والاهتمام والوجود، أعادت لي كياني المدمّر!».

ألا تستطيع ترك الرسالة والاستماع إليّ؟!

«كنت أشعر بالإهانة، لست موجوداً بنظرهم، كنت أتمنّى أن أُمسك أحد المارّة، وأهزّه من كتفيه، أسأله: كيف تراني؟ ما نظرتك إليّ؟ صفني... كيف أنا؟ كنت أتمنى معرفة موقفهم منّي، نظرتهم إليّ.

كنت أتسوّل النظرة: «يا ربّ، لو ينظر إليّ البائع، ويقول: الأستاذ أدهم، أهلاً!»، ولكن لا أحد، لو يشتمني ذاك الرجل: «أدهم، أنت سخيف!». المهمّ أن يتعاملوا معي، أن أكون موجوداً عندهم، أن أحسّ أنهم يرونني، أني موجود ولست وهماً.

إنك تكلّم نفسك، أيّها الحرامي، كلّمني أنا، أريد الإيجار! ادفع لي نقودي حالاً! لماذا تتجاهلني؟

«الحبّ قوّة هائلة، غيّرت نظرتي إلى نفسي، صرت أحبّ نفسي، وأحبّ العالم».

عكست المرآة ملامح وجهه، بدا صافياً وفرحاً، إنه يكلّم نفسه، مهتمٌّ بأمر تلك الرسالة المركونة على الطاولة بحبٍّ وعناية، قرأها أكثر من مرّة.

لماذا لا تردّ علي؟ ما الذي يدعوك للابتسام؟ لقد قرأت هذه الرسالة مليون مرة، اترك الرسالة واهتمّ بموضوعي، أريد نقودي! لقد احتملتك طويلاً، يبدو أن الرجل سعيد، طبعاً، يعيش في غرفة دون أن يدفع لأصحابها حقّهم من الإيجار. هل أنت عاشق؟ نعم، هذه السعادة سعادة عاشق، أرى شعرة نسائية طويلة على كتف قميصك، وأرى أيضاً، نعم، إنّي أرى آثار أحمر الشفاه على قبّة

t.me/qurssan

قميصك النتن.

«سأخلعه، هذا القميص النتن، إلى الجحيم، أنت تذكّرني بـ أدهم اللعين، القديم!».

هيه، أنت، أدهم أفندي، أريد إيجار الغرفة!

«إلى الجحيم أيتها المرأة، انصرفي من هنا!».

دفعها أدهم وأغلق الباب خلفها، ولكنها أصرّت على الدقّ العنيف على الباب، وراحت ترفس الباب وتصرخ: أيها الناس، تعالوا وانظروا! اللصّ لن يدفع نقودي، أخرِجوه من بيتي! واللّه سأجلب للك الشرطة!

«صاحبة البيت هي الكائن الوحيد، قبل سلمى، الذي كان يشعرني بوجودي، إنها الشخص الوحيد الذي يتعامل معي حقيقة، على أني أدهم من لحم ودم، كائن موجود، يُرى ويُشاهد، لكنها تسخر مني كلما رأتني، وتُسمعني كلماتها التهكمية الجارحة حتى أصل إلى غرفتي وأغلق الباب خلفي، وأسمع موسيقاي العالية ليغيب صوتها عني».

أوقِف هذه الموسيقا واسمعني! أريد أموالي أيها اللصّ! سوف أطلب الشرطة حالاً إن لم تفتح لي الباب وتدفع نقودي.

«إني موجودٌ وحقيقيّ».

طرقٌ عنيف على الباب، المرأة تتحدّث من الخارج وتصرخ، وهو لا يزال يعبث بعوالمه الخاصة، نظر إلى وجهه في المرأة، تأمّله طويلاً، مرّر أصابعه على قسمات وجهه، مرّ بخطٍّ عموديّ من جبينه إلى عينيه، إلى خدَّيه، إلى فمه.

لامس شعره، تذكّر مداعبتها لشعره، جاءته رائحتها، اختلطت رائحتها برائحته «إني أحبّك، أنت رجلٌ نبيل!». سقطت إحدى شعراتها على قميصه عندما عانقها، رائحتها عالقة في ثيابه، في باطن كفّه، يشمّ ويشمّ ويستحضرها، واندلقت، كعادتها، أحلام اليقظة:

t.me/qurssan

راح يراقص سلمى على أنغام الموسيقا، اقترب منها وقبّلها من جبينها، انحدر إلى وجنتيها، فارتبكت، ودفنت رأسها في صدره، امتـلأ صـدره برائحتـها المميزة، ابتعـدت عنـه وراحـت تـرقص بمفردها، ثم جلسا على الأرض وراحا يغنّيان معاً.

أوقِفْ هذه الموسيقا اللعينة! أريد أموالي، أيّها اللصّ! أيّها اللص، سأطلب الشرطة حالاً، لن أدعك تنام الليلة في منزلي، سأرميك إلى الشارع كما تُرمى الكلاب!

دارت الغرفة، ودار الراقصان.

كانت الموسيقا عنيفةً وصاخبة. وكان كلاهما يلهث، حاول أدهم الإمساك بـ سلمى، لكنها سقطت على الأرض انفعالاً وفرحاً ولهفة، ووقع أدهم عليها، ثم ضحكا طويلاً... طويلاً. أنت رجلٌ رائع. أحبّك!

[وأنت امرأةٌ عظيمة. أعشقك!

أحبّك يا سلمى! أحبّ كلّك! أحبّ أجزاءك، كلّ ما فيك! كلّ ما ينتمي إليك: حذاءك، خاتمك، عقدك، وسائلك، رسالتك، أظافرك، أساورك...]

وكان يجرع الكحول وهو يتحدّث بصوتٍ مسموع، بينما الصور متتاليةٌ عليه، كأن أحداً قد فتح علبةً مليئة بالصور المخزونة، فاندفعت الصور عشوائياً على أرض الغرفة، غابات كثيفة كان يركض فيها مع حبيبته، تلالٌ عالية خضراء تسابَقا للوصول إلى قمّتها، ساحات دبكة عقدا أصابعهما فيها للرقص معاً، مساحات شاسعة من الحقول والبراري الخضراء، حيث تنبع مياهٌ زرقاء صافية من أعالي التلال وتتدحرج إلى أسفلها، مياهٌ سابحة، نديّة، منعشة. كانا يلهثان من التعب، متحدّياً كلٌّ منهما الآخر، من يسبق الآخـر، مـن يمسـك بـالآخر. كـانا يصـطادان الفراشـات الملوّنـة، ويجمعان الورود البرية الصفراء والحمراء والبنفسجية. وحين تـهالكت سلمى وافترشت العشب والورد الملوّن، ذهب الفارس ليصـيد لـها حيوانـاً، فيطعمـها. اصـطاد الفـارس ذئـاباً وأرانـب

t.me/qurssan

وعصافير وحمار وحش، لم يكن يلزمهما كلّ ذلك الحشد من الصيد، لكنّ الفارس ارتأى ذلك لمحبوبته، مثبتاً فروسيته وبطولته الخارقتَين.

تتابعت الصور على أرضية الغرفة، ملأت الجدران وحواسّ أدهم، صورٌ عنيفة، سريعة متلاحقة، بطيئة، كبيرة، صغيرة، كلّيّة، جزئية، ملوّنة، بيضاء وسوداء فقط، متداخلة، متقاطعة، متشابكة، متطابقة، متجانسة... يا للصور! كلّ أبطالها كانا فقط أدهم ومن يحبّ.

أدهم وحبيبته. في البحر، في البر، في السماء، تحت الأرض، في السرير، في الشارع، في المقهى...

وأدهم يتقمّص كلّ تلك الحالات المرهقة والمتعبة: مفكّراً، حالماً، باكِياً، ضاحكاً، محلّقاً، مقطّباً، شارداً، راقصاً، ساكناً.

لمّا تعب، ألقى برأسه على ركبة سلمى، فغنّت له: «يا الله تنام... لأدبحلك طير الحمام!».

افتح الباب! افتح أيّها الكلب، وإلا سأكسره وأخسر ثمن تصليحه!

أحبّك يا أدهم! أنت رجل مفاجئ. فاجأتني واخترقت حياتي. اقتحمت خفاياي وامتلكت مفاتيحي. أنت مختلف!

اسمعيني يا سلمى! أنا إنسانٌ معذَّب، رجلٌ مليء بالسواد.

افتح، أنت تكلّم نفسك، أيّها المجنون! أوقِف الموسيقا! أكاد أجنّ منك، أوقف الموسيقا!

أنا سعيد باكتشافي لذاتي، يعود إليك سبب إشراقي، إني مشرقٌ، يا سلمى، مشرقٌ بك!

توقَّف عن الشرب، أنت تؤذي صحتك!

أشعر أنكما «المشروب وأنت» تخفّفان عني عبء الوجود، لقد ظلمت نفسي مراراً يا سلمى، كنت أرى نفسي بلا أهمية، كنت أمنح الآخرين دون أن أهتمّ بنفسي.

t.me/qurssan

أنـت مـهمّ، سـأجنّ أو أمـوت إن فقـدتك! إنـي بحاجـةٍ إليـك، كلّ حياتي مرتبطةٌ بك، ماضِيَّ وحاضري ومستقبلي.

أنا مهمٌّ إذاً، ولست عارضاً ولا طارئاً أو مؤقّتاً.

إنـي أحـبّك دومـاً، وسـأحبّك إلـى الأبـد، إلـى أن تتـوقف أنفاسـي وتنقطع! /إنك حياتي بكاملها! حبُّك لي جعلني أتأكّد أني موجودٌ، ومهمٌّ، وذو وزن!/.

سوف أحبُّك حتى الموت. لن يبعدني شيء عنك سوى الموت!

عِديني ألا تتركيني!

لـن أتركك أبداً! سأخون نفسي إن فعلت، وسوف أحتقر نفسي جداً، لأنك فارس أحلامي الحقيقي.

افتـح، أيّهـا المجنـون! لـو أنـي أعـرف مـن تكلّم فـي هـذه الغرفة اللعينة.

سلمى، أيتها الحبيبة السحرية، يا من منحتِ عمري تبرير وجوده، وتسويغ استمراره!

نظـر فـي المـرآة إلـى وجهه، تأمّل نفسه، تأمّل الغرفة، القميص المرمي على الأرض، خلع بنطاله ليؤانس القميص.

إني حيويّ، جسدي رياضيٌّ وجميل، عضلاتي متينة، جسمي قويّ ورشـيق، محـقّةٌ سلمى فـي الوقوع بي. لملم البنطال والقميص وحشرهما في سلة المهملات /غداً أشتري ملابس جديدة/.

رتّب الغرفة، سوّى السرير، كان يحسّ بيد سلمى ترتّب الأشياء، تمسك بيديه وتسوّي السرير والمخدّات. آثار يدها على قميصه، رقبته، يستحضر دوماً وقفتها أمامه بهيئتها الكاملة وهي تفكّ أزرار القميص، ثم تعيد إغلاقها، كأنها تتسلّى بالأزرار. بكثيرٍ من الحـذر والبـطء، خلـع قميصـه كـي لا يزعـج يـدها، التـي لا تزال، بأحاسيسه، معلّقةً بياقة القميص.

t.me/qurssan

أضاء نور الطاولة، فانفجر ضوءٌ من داخله، بدّد ظلمته الجوانية وشعوره بالوحدة والغربة والكآبة، وشعّت العناوين على الطاولة:

«الوجود والعدم» / سارتر. أنا موجود، موجود، لِيَحيَ سارتر! أنا لست تافهاً.

«الغثيان» / مرحباً مسيو روكانتان! أنا سعيدٌ حقاً بوجودك معي على هذه الطاولة!

فتح علبة سردين، وصَبَّ كأساً جديدة من الخمر.

«ذئب البوادي» / هيرمان هيسّه. أوه، سيد هاري هاللر، مرحباً! هاي! كيف أنت؟ إنك تشبهني أحياناً، تحيّاتي!

«المواقف» / النُّفَّري. لن أنسى مواقفك أيها الشيخ الجليل! ولن أنسى إرهاقي في اقتحامك والدخول في مخاطباتك!

«زوربا» / باي، وداعاً! أراك غداً أيها الشيخ، استمتع بوقتك!

هاللو همنغواي! قليلاً من السردين؟ تفضّل! لا تحبُّه؟ معك حقّ، مللت أكل البحر!

كتبي الجميلة، إرثي العظيم، يجب أن أمسح عنك الغبار لتعودي لامعةً وأنيقة. ها، هذه صورة غلاف لكاتب ناشئ أحبه.

التقت كلتا يدي أدهم مصادفةً على المجموعة الشعرية، وتذكّر الكاتب الناشئ، كان يدرس معه في الجامعة، ولكن في فرعٍ مغاير لفرعه.

افتح! سأكسر الباب وأطردك شرّ طردة!

كان قزماً، وكنّا نسخر منه. كنت أكثر أهمّية منه، وكان جميع الطلاب يشهدون بذلك. ومع ذلك كنت عديم الإيمان بنفسي، كنت أعدّ نفسي قليلاً وضئيلاً، وقد أصبح الآن كاتباً معروفاً ومشهوراً. ترى أكانت تعتريه حالاتٌ كالتي تمرُّ بي، من الشك بالذات، وعدم التيقّن من الوجود؟ يا لي من مجنونٍ، لم أقدّر قيمة نفسي!

كانت يداه على الغلاف، وبدتا أنيقتين، وقد شعر بذلك. يا لأناقة يديّ! أصابعي طويلة، أنيقة، كأصابع الفتيات، ساعدي بلا شعر، نظيفة، بيضاء، لامعة. إني رجلٌ ذو ميزات جسمانية، ليحيَ أدهم، يحيا...

افتح! ترفع شعارات تحييّ بها نفسك؟ افتح، وأوقف هذه الموسيقا اللعينة!

لملمت أوراقي المبعثرة، مذكّراتي، خواطري، كنت أبحث عن شيءٍ ما، لا أعرفه، شيء يحقق المتعة، وكنت أشعر بالمتعة. وجاءني الجميع، كلّ من عرفت، لقد أحببت الكثير من الناس خلال حياتي.

وراح يكتب رسالةً إلى سلمى، قال لها إنه يحبّها، وحدّثها عن زوربا الذي كان يكتشف الشمس كلّ صباح، وينبهر باكتشافه، وكأنه، يومياً، يراها للمرة الأولى.

توجَد في حياتنا جماليّات جمّة لا نلحظها، ولا ننتبه لوجودها، لأن رؤيتنا مشوّهة.

أشعل ضوءاً أحمر جانب الطاولة، فأضاءت جملةٌ كان قد كتبها على قصاصة صغيرة، ألصقها على حافة الطاولة:

الرجل القويّ

رجلٌ وحيد!

كان نيتشه عزاءه قبل سلمى، والآن، ليس هو بـ وحيد.

عندما تكون الرؤية حرّة، تكون جميلة. لقد تخلّصت من خوفي وشكّي ووهمي، إني أحبّ الحياة، أحبّ الناس، ممتلئٌ بالحبّ.

تافه! جبان! حقير!

تلمع النار من خلف بلّورة المدفأة، تصبّ أمّي الشاي، السجادة الممدودة على أرض الغرفة ملوّنة بكلّ الألوان، وصينية الشاي على السجادة رُسم عليها صورة «روميو وجوليت» جالسَين بين

t.me/qurssan

الأشجار. أمّي، كم أحبُك!

تخترقني رائحة سلمى، رائحتها في يدي، تحت أظافري، تحت جلدي، ممزوجة بأنفاسي.

عندما تسلّلت يدي إلى شعرها، فاحت رائحة التفاح، كان شعرها يحمل رائحة التفاح، كان شعرها عطراً، وكان فمها عطراً.

تمكّنت صاحبة المنزل من اقتحام الباب، كسرته، ودخلت، وراحت تزعق وتصيح وتُسمِعه أتفه الكلام. حاول أدهم تجاهلها مستمرّاً في تناول الكحول والأحلام.

قذر! جبان! تافه!

أرجوكِ الانصراف! أنا متعَب، يبدو أني سكرت، ليست لديّ القدرة على التفاهم معك، اخرجي الآن، وسأدفع لك غداً كلّ ما تريدين!

كاذب! لعين!

إنها تشبه أمّي، بدينة، بشعة، أصبح وجهها كبيراً، انتفخت عيناها وتورّم كرشها، يا إلهي كم هي بشعة!

تافه! لص!

أحقّاً تحبُّني سلمى؟ هل ستحبّني وأنا ملقى على السرير، بلا بنطال، بلا قميص، أتلقّى الشتائم والسباب من امرأةٍ لعينة كهذه؟! ما سيكون موقفها مني، لو رأتني بهذا الضعف؟ ستقول لنفسها: لا أحبُّ الرجل الضعيف، لن أحبّه بعد اليوم، ليذهب إلى الجحيم! كيف أرتبط عاطفياً برجلٍ لا يمكنه حماية نفسه من امرأةٍ حمقاء كهذه؟!

يجب أن أدافع عن وجودي، إنها تلغي وجودي، تعيد إلى الوجود أدهم الضعيف، هذا الأدهم الذي، منذ لحظاتٍ قليلة قليلة قليلة، اكتشفت اغتياله، وقد صمّمت على الإبقاء على أدهم الذي وجدته الآن، الذي قفز من قلب سلمى واستقرّ رجلاً وسط الغرفة، معتدّاً بنفسه، مزهوّاً بوجوده.

t.me/qurssan

لمعت عيناه بطيبةٍ وحبّ، وقال لها: أرجوكِ أن تنصرفي الآن!

كانت نظرتها سخيفة، نظرة تصرّ على اغتيال أدهم الجديد وإحياء أدهم القديم. في عينيها رأيتُني، رأيت نظرتها إليّ، إنها تراني بعينيها، تراني على الشكل الذي أرفض أن أكونه، تراني وأرى كيف تراني، تراني مسحوقاً، نذلاً، جباناً، ضعيفاً.

قالت لي: أعرف أنك جبان، تريد أن تصرفني ثم تهرب من البيت كعادتك، وتعود متسلّلاً في آخر الليل!

المرأة الضحية مقابل الرجل الضحية، إمّا أن أضحّي بالرجل الذي أحبّ: أدهم، وإمّا أن يُضحّى بها، هذه الغبيّة، مقابل أدهم القويّ، الذكيّ، المعتدّ، الجديد.

عندما فتح أدهم الباب ووقعت المرأة التي كانت تضغط بكلّ قوّتها على الباب، شوهد أدهم منتفخ العينين، متورّم الوجه، شفتاه متورّمتان، عارياً كان، وحيداً، ولم يكن معه الشخص الذي كان أدهم يتحدّث إليه طيلة الوقت السابق. ويبدو أنه في تلك الليلة كان غائباً عن الوعي، إمّا بسبب كثافة الأحلام، وإما بسبب الإفراط في الشرب. ويبدو أنه لم يضبط سلوكه وفقد الإدراك، فوقع أسير انفعالاته، وخضع لموجةٍ صاخبة من الهيجان والاندفاع.

أغلقت الباب مجدّداً، وتخلّصت من صراخها، وعدت أرقص على صوت موسيقاي العنيفة، المتصاعدة، اللاهثة، واللاهث معها أنا، متعَباً، منتشياً، وقد أُغمي عليّ من السعادة.

في صباح اليوم التالي، عندما رأى أدهم الدماء...

تسرّب الدم إلى غرفتي، وكانت رائحته كريهةً، تثير ذكرياتٍ رهيبة، لم أتذكّر محتوياتها، ولكنّي كنت أشعر بالألم الشديد في رأسي ومعدتي، وكنت أحلم بشخصٍ، ربما سلمى، يأتي في الحال ليغسل الدم عن عتبة غرفتي. تقيّأت وأنا في السرير. أكره مشاهدة الدم، وأخافه. لم أكن أحتمل رؤية الدم بتاتاً، كنت أبكي كالأطفال عندما يُجرَح إصبعي ويخرج منه دم. وكذلك بكيت

t.me/qurssan

حين ولدت أمي، ورأيت الدماء حول ملابسها. أخاف جدّاً من مشاهدة الدم، ولا أذكر الأسباب.

كان يعاني صداعاً شديداً، وقد تقيّأ ثلاث مرّات هذا الصباح، ولم يتمكّن من مغادرة سريره. امتلأت الغرفة برائحتَي القيء والدم. وقد حاول النهوض بصعوبة، ولمّا وصل إلى باب الغرفة وفتحه، فوجئ بجثّتها أمام الباب، حينئذ فقط أدرك ما حصل في الليلة الماضية.

كان يجب أن أقتلها، كي أدفن، وإلى الأبد، وأنهي وجودي، أو احتمال وجود أدهم المحتقَر، الضعيف، أو عودته. لم أقتلها هي، بل قتلتُ أدهم الذي كانت تراه. كنت أريد انتزاع أدهم الذي أكره من نظرتها، نظرتها التي ولّدت، وساهمت في توليد أدهم الذي كوّنَتْه وصنعَته نظراتُ الآخرين (أو عدم نظراتهم)، فعلُهم (أو امتناعُهم عن الفعل) الذي صنع أدهم. أدهم الذي أرفض هو أدهمهم هم، وليس أدهمي. أمّا أدهمي، أدهم سلمى، فقد أيقظتُه من سباته، انتزعته من عيونهم وسلوكهم وإشاراتهم، أزلتُ عنه غبار اليأس والنوم، نفخت فيه روح أدهم الذي يخصّني. أما ذاك، قبل القتل، فإني أتنكّر له. إنه لا يخصّني. ومن قام بالقتل ليحمي وجودي هو من أعترف به، جديراً أن يكون هو أنا. إني الآن مخلوقٌ جديد، وهذا الدم على بلاط الغرفة إشارةٌ أكيدة إلى علاقة حاضري بمستقبلٍ مختلف عن ماضيّ، إذاً، الآن فقط، يحيا أدهم.

في صباح اليوم التالي، عندما رأى أدهم الجثة...

كان قد استعاد صحوته.

المسكينة، الذنب الوحيد الذي ارتكبته، هو مطالبتها بحقّها في وقتٍ غير مناسب. لم أكن أريد قتلها، هي دفعتني إلى ذلك.

واقترب أدهم من الجثة.

ألا توجد طريقة في هذا العالم، أستطيع، بها، وضع يدي ثانيةً مكان الجرح، فأعيد هذا الجسد إلى ما كان عليه قبل ليلة؟ ألا

t.me/qurssan

أستطيع استعادة روح هذه المسكينة؟ ألا توجد ثمة حلول لإعادة تصحيح خطأ انفعاليٍّ صغير؟ كم أحلم بإغلاق جرحك، وإعادة الدم إلى جسدك الأصفر، لأقبّل يدك وأعتذر منك، أيتها المرأة التي تشبه أمي، تذكّرني بأمي، أمي أكثر من أحببت في هذا العالم، أمي أكثر مخلوق أحببته على الإطلاق!

وبكى أدهم، كما يبكي الرجال.

ولد أدهم عام 1962، كان رجلاً صبوراً، حكيماً، وكان يكسّر الأشياء خفية، ربّته جدّته «فاطمة» وأرضعته من ثديها لأنه:

في سنّه المبكرة، الأربعة أشهر، بكى بكاء شديداً تلك الليلة، ولم تتمكّن أمه من إسكاته، أيقظ جدّه امرأته في منتصف الليل مطالباً إياها بإحضار الولد.

جاءت فاطمة بالولد.

أرضعيه من ثديك!

ليس لدي حليب!

أعطه ثديك!

وضعت فاطمة ثديها في فم الولد، فاندلق الحليب في فمه، وصمت الولد ثم نام.

بقي أدهم يرضع من ثدي جدّته حتى سن العاشرة، وكان لا ينام إلا وثديها في فمه.

وكان جدّه صارماً وقاسياً، ولكن أدهم تربى كما يربى الرجال، أما جدّته فقد كانت نبع حنان لا يتوقف عن الدفء والعطاء.

قالت أمي:

رأيت ورقة خضراء، نديّةً، لامعة، وكنت أشعر بجفافٍ قويّ في حلقي، ولم يكن ثمّة ماء في المكان، اقتربت منها، نزعتها عن غصنها، والتهمتها.

t.me/qurssan

تركت الورقة طعماً مالحاً في حلقي، كدت أتقيّأ بعدما ابتلعتها، ولو أني تقيّأت، ما حملت بك.

من صيغ نشوء أدهم، أنه نشأ سنة 1958، في أسرةٍ شديدة التأثّر بالعقلية الحديثة. درس أدهم المسرح وعشقه، وصارت أحلامه الليليـة والنـهارية، أحـلام النـوم واليقظـة، مرتبطـةً بـذلك المتـر الخشـبي المـرتفع، يصـول عليـه أدهـم ويجـول، بأزياء متنوّعـة، ومعالم متنوّعة، ممارِساً سلطة الملك حيناً، ممارَساً عليه سلطة العبد أحياناً، أبله طوراً، وشديد الذكاء أطواراً. كان يصعد الخشبة ليقفز عليها ويزحف على أرضها، ويطير في فراغها. وفي الليل، قبل أن ينام، كان يبتكر أدواراً لنفسه، وفي نومه كان يرى أحلاماً مرتبطة بشدّة بتلك الأجواء والعوالم.

أرى نملة، فأقول لها: صباح الخير! وأحوِّل طريقي عنها، كي لا أزعجها.

أرى طفلاً، فأقبّله، وأعطيه حلوى ونقوداً.

أرى متسوّلاً، فأجلس إلى جواره، ويحكي لي حكاياه.

لكنه، كان قليل الاهتمام بالنظافة، أو عديم الاهتمام بها. فقلّما غسل أدهم شعره أو أسنانه أو ملابسه. لذا، فقد بدا الوسخ عليه، ودلّ عليه، وعُرف من رائحته عن بُعد. ولم يخطر في بال رائيه، أن هذا الرجل ذا الملابس الرثة، يعمل إلا عامل تنظيفات، أو -إن علا شأنه- بائع خضارٍ في سوقٍ شعبيٍّ يعجّ بالذباب والبعوض ورائحة السمك الزنخ واللحم النتن.

أنا رجل ضد المواقف، أكره ما يسمى بـ الموقف، وأعتبر عكس هذا، سلوكاً حضارياً. فالرجل الحضاري ليست لديه مواقف، الرجل الحضاريّ رجلٌ مرنٌ ومتجاوز. لذا، فأنا، على الدوام، لست رجل المواقف، إنما، رجل التجاوزات.

عندما كان يعزف على البيانو، كان البيت بكامله يرتجّ، كان يخلق جوّاً من الرهبة والهيبة والرصانة.

t.me/qurssan

ربّما يسمّي البعض ذلك بالذرائعية، ويقولون: أدهم، باسم الديناميكيّة، يبرّر أقذر الأشياء. ولشدّة مرونته يكاد ينقطع. رجلٌ بلا موقف، رجلٌ تافه.

كانت أمه تقبع في المطبخ، تشتغل بصمت، وتكفُّ عن عادتها الكريهة في الثرثرة اللانهائية. وكان أبوه يقرأ في جريدة، غير مستقرٍّ في قراءته، بل مأخوذاً مع موسيقا ابنه. وكان أدهم يحلّق في سماوات بعيدة، يسافر إلى أصقاع نائية، بينما يداه ثابتتان على أصابع البيانو.

أكره الذين لا يميِّزون بين الأشياء وضدّها.

عندما كان أدهم يركب حصانه، جارّاً خلفه عربةً خشبية ملأى بالريحان والزنبق الأحمر، والفلّ الأبيض، والياسمين بألوانه المتعدّدة، والسجّادة، وفم السمكة، والقرنفل الزهري، كان يوحي للمشترين أنه قادم من بلاد رعاة البقر. فقد كان يقلّد أولئك في ملابسهم، فيضع قبّعة قشٍّ على رأسه، ويرتدي سروالاً خاكيّاً، وينتعل حذاءً مثقوباً مفتوحاً من جميع جوانبه، يدخّن سيجارته وينادي على الورد، وهو الرجل الأمّيّ الذي لم يرَ بلاد رعاة البقر إلا على شاشات السينما.

كلّ الناس الذين أحببتهم، لم يكن حبّي لهم خاصاً، كنت أحبّهم، وكنت أيضاً، أكرههم. عندما أقول أحبّهم، فأنا أشعر بالحب فعلاً تجاههم، وحين أقول لنفسي إني لا أحبّهم، كنت أقتنع تماماً بأني أكرههم، وأنهم لا يعنونني بتاتاً. وعندما أؤكد لنفسي أني لا أحبّهم ولا أكرههم، كنت أتبيّن في نفسي تلك المشاعر الحيادية تماماً بشكل جليّ.

كنت أسأل نفسي في اللحظة ذاتها، مثلاً، على الشكل التالي، بفرض أن الشخص الذي أحاول تبيان مشاعري نحوه هو أمي:

1 ـ هل أحبُّ أمّي؟

طبعاً، أحبّ أمي. أمّي إنسانةٌ طيّبة، تحبّني، تفهمني، تتجاوب معي.

t.me/qurssan

2. كيف أحبّ أمي؟

هذا ليس صحيحاً، إنها لا تعني لي شيئاً البتّة. هل كانت تفكّر بي قبل أن تلدني؟ هل كانت تعرف، عندما حملت بي، أنها ستلدني أنا تحديداً [أدهم كما أنا به من صفات]؟ لا، كانت تريد أن تلد للّذتها الخاصة، وللّذة زوجها. إذاً، لم تكن أمي تفكّر بي أنا، ولم تعاملني بشكل جيّد لأني أدهم بصفاتي الخاصة، بل لأني ابنها هي، أعود إليها، تؤول شخصيتي إليها بصفتها أمي. ولم تكن معاملتها لي لتختلف، عمّا هي، لو أني كنت معتوهاً أو معوقاً أو مجنوناً. إذاً، هي تحبّني فقط لأني ابنها، وهي فاقدةٌ لذة التمييز، أو ميزة التمييز. وهذا لا يحتم عليّ أن أحبها، لأنها لم تفعل سوى واجب الأمومة الذي يرضيها ويرضي غريزتها. أي أني لست مديناً لها، بل على العكس، يحقّ لي، في حالات ضعفي، أن أشتمها، لأنها المسؤولة عن وجودي في الحياة؛ لو أنها لم تنجبني، لسهّلت عليّ أعباء الوجود.

3. إذاً، ربّما أنا أكره أمي، وهذا ليس سيّئاً، وليس عاراً، حتى لو لم تكن أمي إنسانةً سيّئة. لأني، إن قارنتها ببقيّة الأمهات، فهي لم تقدّم أكثر مما قدّمته كلّ أمٍّ غيرها. فكل الأمهات يمنحن أولادهن دون انتظار المقابل، والأم التي تمنح وفي ذهنها فكرة بالمقابل، أمٌّ منقوصة الأمومة. لأن الأمومة عطاءٌ دون أخذ، أو عطاء دون انتظار حالة الأخذ. أي أن أمي أدّت واجبها كما تفعل جميع الأمهات. ولكنّ أمي بالذات، دوناً عن جميع الأمهات، امرأةٌ سيّئة. نعم، أعني هذا، لقد كانت تزعجني حقيقة، والذهنية الأخلاقية تفترض وتفرض عليّ أن أحبّها: [يجب أن تحبّ أمك] قانون أخلاقي يخدم الأمهات، ولا يخدم الأبناء. لماذا، إذاً، يوجد قانونٌ فوقيٌّ كهذا يستعبد الابن باسم الأخلاق، عندما لا تكون مشاعره الحقيقية هي الحب؟ لماذا عليه ادّعاء الحب، ولماذا يصبح مداناً في نظر الآخرين، عندما يتجرّأ ويعلن عن عدم حبّه لأمّه؟! أنا أكره أمي، هذه هي حقيقة مشاعري، فلماذا أكذب على نفسي، باسم الأخلاق؟ إني أكرهها، وإحساسي الأخلاقي بحرّيتي يحتّم عليّ التعبير عن نفسي، كما أنا، دون نفاقٍ أو تزيين أو تزييف.

t.me/qurssan

فاكتشاف أني أكره أمي، أهمُّ، بالنسبة إليّ، من حالة التصنّع وافتعال الحب، على حساب حقيقتي الداخلية. نعم، أنا رجل مهتم بعلاقتي مع نفسي، أكثر مما تهمني المفاجأة أو النتائج الوخيمة المترتبة عن علاقةٍ كهذه.

فلو تخيّلت أن أمي ليست أمي، إنما امرأةٌ غريبة عني، فإني لن أحبّها بالشخصية التي تحملها، لأن مواصفاتها لا تعجبني. ولو أني ملكت القدرة على اختيار أمي، فلن أختار أمي أمّاً لي. بل سأختار أمّاً بمواصفات مغايرة لأمي الحالية، وكلّ مشاعري الطفولية والغريزية تجاهها، متّجهة هكذا، فقط لأنها أمي. أي أن حبّي لها، هو حبٌّ لي، لأنها تعود إليّ، أمّي أنا، وليست أمّ ابن الجيران أو ابن عمّي مثلاً، لذلك أدافع عنها.

أدافع عمّا تحمل من صفاتٍ لاصقةٍ بي، نسباً وارتباطاً عائليّاً وأسروياً.

ولد أدهم من أبوين مجهولين، إذ وجدته عجوزٌ مرميّاً على الرصيف، فأخذته، ووجدت في كفّه ورقة حملت هذه الكلمات: «ليكن اسم هذا الصبي أدهم، جزى الله خيراً من عثر عليه فأخذه، فرعاه!».

ولمّا لم يُعرَف له نسبٌ ولا عائلةٌ ولا أهل، فقد سُمّي نسبةً إلى الورقة التي كانت في يده: أدهم بن ورقة.

ثم تابع:

إني أحبُّ فيها ملكيّتي لها، أمي لي. أما هي، بعيداً عني، كأم، وكامرأة، فهي تحمل تاريخاً أسود معي، تاريخاً مريراً ومضنياً، تاريخ عنفٍ وإرهاب:

1. تضربني، تشدّ شعري أمام الجيران، تبصق في وجهي، تغسّلني بعنفٍ في الحمّام وتفرك الصابون على عيني، وتسكب الماء على رأسي بإرهاب، فتصيب رأسي بطاسة النحاس الموجعة، حتى أبكي.

t.me/qurssan

2 . ولدت أمي أحد إخوتي، وتألّمت كثيراً ليلة الوضع، وتألّمتُ متعاطفاً معها، تبعاً لألمها. أنّت أنيناً موجعاً، شعرتُ بالخوف والرهبة والألم والشفقة. كادت أمي تموت أمامي، وكنت أرتعش أثناء مخاضها.

3 . أُجريت لها عملية جراحية، وعندما رأيت الدم على ملابسها أُغمي عليّ، ولمّا صحوت، لم أنقطع عن البكاء حتى بُحَّ صوتي.

4. تشاجرت مع إحدى جاراتها، فأحضرت تلك لها الشرطة. ورأيت العنف فجأة، عندما نزل رجال الشرطة من سيارتهم حاملين بواريد ومسدّسات، ولم أنسَ ذلك المشهد إلى اليوم.

5 . تركت المنزل لأكثر من مرة، كانت تحرد من أبي، وتتركنا دون طعامٍ أو حمّام، أنا وإخوتي، نتشرّد كاليتامى، نتّسخ، ونجوع، وننام دون أغطية.

6 . توبّخني أمام الأقارب والجيران وتقلّل من شأني، ترد عليّ بعنف وقتالية.

وأشياء كثيرة وكثيرة. إذاً، أستطيع، دونما تحفّظ، القول، ودونما مبالغة، إني أكره أمي.

كنت أنظر إلى أصابع النساء المطلية بالألوان، وأقول لنفسي: كيف تستطيع هذه المرأة غسل مؤخّرتها؟ ألا تَخِزُ الأظافر الطويلة المؤخرة؟

أكره الذين لا يميّزون بين اللطف والتملّق، بين الحب والمجاملة، أكره الذين، باسم الديبلوماسية، يتعاملون مع ألدّ أعدائهم بابتسامةٍ تخفي اشمئزازهم الجوّاني.

أتأمّل فناجين القهوة بعد أن تنهي النساء شربها، وأتأمل مشهد أحمر الشفاه على الفنجان، فأحسّ بالاشمئزاز.

كانت لديّ عادةٌ غريبة، تمرّنت طويلاً حتى تمكّنت من السيطرة عليها والتخلص منها، كانت تتمثل في أن لديّ شعوراً غريباً، بغَيرة إحدى يديّ من الثانية. فقد كنت، كلّما مررت من شارع، ولمست

t.me/qurssan

يدي جداراً ما، أو نافذةً ما، أو عمود كهرباء، أو أيَّ شيء، ألحقتُ يـدي الأخـرى بالشـيء الـذي لمسـته الأولى، كي لا تغار لأنها لم تلمس ما لمست نظيرتها.

لم أكن أستطيع التخلّص من شعورٍ مزعج، بأنّ ثمّة خـ... تحت أظافر النسوة، وثمّة بقايا قهوة لم تزل ملتصقة بالفنجان، تحت آثار أحمر الشفاه.

مرّت معلّمتي أمامي، فلامس ثوبها يدي، نهضت إليها، وطلبت منها إذناً بالخروج إلى المرحاض، ولمّا مررت بجوارها، جعلت يدي الثانية، تلامس ثوب المعلّمة.

لم تكن أمي تستعمل أحمر الشفاه، ولا أحمر الأظافر.

كان رفاقي يسخرون مني: أدهم يقول إن يديه تغاران إحداهما من الأخرى! ثم يقهقهون طويلاً.

كنت متعلّقاً بأبي، بشدّة. كان أبي حاضراً فيّ، ثبّت شخصيته في جميع سلوكياتي بدلاً من أن تثبت شخصيتي.

أقلّده، أتحدّث مثله، أتحدّث عنه، ألحق به إلى مكان عمله، أقود سيارته وأنا جالسٌ في حضنه، أصادق أصدقاءه، وينادونه: أبو أدهم! فأزهو، وأقول متباهياً أشياء مثل:

أنا عصبيّ، مثل أبي!

أنا عنيد، كأبي!

إني أشبه أبي، فأنا رجل!

لم أستطع طيلة حياتي اتخاذ موقف. حاولت أن أبني موقفاً لي، ولكني فشلت. كنت أتراجع عن مواقفي بسرعة، وأحياناً ببطء، ولكني أتراجع. لم أكن قادراً على تنفيذ قراراتي العقلانية، كان سلوكي يضرب بقراري عرض الحائط. وكنت انفعالياً أكثر مما كنت فاعلاً. أيُسمّون هذا صراعاً بين الفكر والنفس، بين العقل والرغبة... أم أنني ضعيف وهشّ؟

t.me/qurssan

كنت مؤمناً أن أبي يعرف كلّ شيء، ويفهم في كلّ شيء، يعرف دواخل الإنسان، يتنبّأ بمستقبل الأشياء، وأنه لا يخطئ أبداً.

الكره هو أرقى حالات التوازن الفردي في مجتمعٍ يغصّ باللاتوازن الجمعي، وبالقتل اليومي لعواطف الإنسان.

كنت غبياً إلى درجة أن اعتقدت أن أبي لا يذهب إلى المرحاض، وأنه يعرف بماذا أفكر حتى لو كنت في بلدٍ آخر.

الآخرون سيِّئون إلى الحدّ الذي يضطرّونك فيه لاتخاذ موقف مغاير لما أنت عليه من موقف حقيقي، وأنت تتخذ الموقف الحزين لتكون على مستوى المهارة الحياتية. مثلاً:

أنا رجل عاطفي، أحبُّ أمي، متعلِّق بها، وأرغب في معاملتها بلطف. ولكن أمي تحتقرني، تسدّ عليّ طريق اللطف. عندما تمرض، أضعف أمامها وأشفق عليها، فأعتني بها أكثر مما يعتني بها أخي: أدلِّلها وأعطيها الدواء والماء، وأسهر إلى جانبها، بينما أخي يهملها ويسخر من ألمها ويتجاهلها. وحين تشفى أمي، فإنها تعامل أخي، الذي أهملها، معاملةً جيّدة، وتعتني به وتؤمّن له طلباته، بينما تهمل طلباتي، وتحكي عني في غيابي، يثرثران معاً عليّ.

لقد أدركت هذه المواقف، فصرت مسبقاً، حينما تحتاج إلى معونتي، أضطرّ لاتخاذ موقفٍ مغاير لموقفي الداخلي. فأضطرّ، نظراً لسلوكها معي، إلى إهمالها، فأحرف مشاعري وأعطفها على عكس ما هي عليه، أي عكس التعاطف والحب والشفقة، كي أُرضي عقلي الذي لا يريد أن أكون شخصاً سخيفاً لا يتقن التصرف، ويجعل نفسه ألعوبة بيد الذين يحبّهم، ولا يحبونه، أو لا يقدّرون هذا الحب، وهذا يسبّب لي الألم. أرى أمي تتألّم، فأدّعي أني نائم، ويعلو شخيري جوار شخير أخي.

عندما كنت أركب خلف أبي، على درّاجته النارية، كنت أرى الهواء مارّاً أمام عينيّ. كنّا، بين الفينة والأخرى، نتوقف، كي نجمع الطيور الجارحة المقتولة على الطريق، أو أهرع إلى حقول

t.me/qurssan

الحمّص والعدس الأخضر لألتهم منه ما أستطيع. كان أبي رجلاً عظيماً، اهتمّ بي كندٍّ له منذ بداياتي في الحياة، وحاول دوماً أن ينصّبني شخصاً مهمّاً بين الآخرين، وتداً أمام العيون، وتداً، بين العيون.

وكانت جدّتي تقول باستمرار: يذكّرني أدهم بطفولة ورقة، كم يشبه أدهم أبيه!

كان لأمّي وجودان: وجود في داخلي، ووجود خارجي.

كانت أمي خارجاً عني امرأةً موجودة بالفعل، كما هي، من لحمٍ ودم، تتحرّك، تمشي، تأكل، تعمل، تكنس، تـ...

وفي داخلي، عندما لا تكون أمامي، كانت هاجساً مرافقاً لي فكرةُ أنها ربّما ماتت. فكنت أهرع إليها، مهما كنت بعيداً عنها، وأظلّ، طيلة الطريق إليها، أدعو الله أن يمدّ في عمرها، ويبقيها حيّة. كنت كالمراهقين أكاد أبكي، خشية موتها، ولم يكن أحد ممن حولي يعرف، ما الذي يدعوني للمغادرة فجأة، لأعود إلى دارنا. كنت أسرع إليها، للتأكد من أنها ما زالت موجودة، وحينما أدخل المنزل وأراها بعيني، وأتأكّد من عدم موتها، أتأكّد من وجودها الحقيقي، خارجاً عني، كنت أسخر من نفسي.

ولكنّي لم أكن أستطيع تجاوز هذه المشاعر. أيُسمّون هذا أحد أنواع الرهاب؟ إذاً، فليكُن رهاب موت أمي.

ولم أشعر بالطمأنينة على وجودها بتاتاً، كان هذا القلق يعذّبني، يجعلني متيقّظ الحواس طيلة الليل لأتأكد من تنفّسها. وأحياناً، أنهض من فراشي، أقترب من فراشها وأتأكد من علوّ صدرها وهبوطه.

كنت أدخل إلى المرحاض بكثرة، ويقول عمّي: «من أضاع منكم أدهم، فليبحث عنه في المرحاض!». كان المرحاض مَهْرَبي وملجئي، وخلاصي السريع. كلّما أردت التملّص من خدمةٍ أو موقف، دخلت المرحاض. وكان المرحاض يحميني من سوط أبي، فعندما يهمّ بضربي، كنت أدّعي الرغبة في التبوّل، فأدخل

t.me/qurssan

المرحاض، وأسكن هناك، حسب تعبير أمي.

شكّلت ثقافتي ثلاثةُ منابع:

1 . السريالية.

2 . الوجودية.

3 . الصوفية.

أُعجبت بالحركة السريالية إعجاباً لا حدود له، وحتى اليوم لم أرَ فكراً أحدث من الفكر السريالي، ولا مدرسة فنية أو فكرية قد تجاوزت المدرسة السريالية. وأيضاً عشقت آباء الفكر الوجودي، فكان سارتر مثلاً الأب الفكري لي، وقد تعلّمت منه تفاصيل التحليل الفكري. أما المتصوّفة، فليحيوا! هؤلاء هم الذين وضعوني في حضرة الله، دون أن أعرف أني في حضرته. هؤلاء أعطوني مفهوماً لله، ساعدني دوماً في تحمل الصعاب، وتقبّل كل الأزمات.

كنت أنصرف إلى الكتابة لأيام طويلة، وينسى أهلي وجودي في البيت، فتدخل أمي فجأةً وتفاجأ بي: أنت هنا؟ ظننت أنك مسافر!

كانت الكتابة هاجسي الأول، وخلاصي البدئي.

لو حُلِّل دمي عاطفياً، لحوى ثلاث عواطف أساسية: الحب، الشفقة، الحيرة.

يشكِّل الحب ستّين بالمئة من دمي، وتشكِّل كلٌّ من الحيرة والشفقة عشرين بالمئة لكلٍّ منهما.

ولد أدهم سنة 1914، وظلّ وسيماً حتى بلوغه الثمانين. وبقي أدهم فارس أحلام نساءٍ كثيرات. فقد كان أنيق الملبس، جميل الإطلالة، حلو الكلام، ديناميكياً، مرناً، مرِحاً، خبيثاً، ماكراً. وكان يعرف كيف يجعل النساء يؤخَذن به، فقد كان أفّاقاً، منافقاً، ولكنه كان لا يؤذي بتاتاً، وشُبّه بالأفعى التي تخدع وتراوغ، ولكنّها، بلا

t.me/qurssan

الضجر سائلٌ يملأ جسدي.

رغم ميلي القطعي إلى أن البشر أنانيون وطغاة، فإني لم أستسلم لهذا الميل. بل تمتّعت بفلسفة مرنة، تقوم على أن هناك استطالاتٍ للنوابض، ومرونةً لكلّ نابض. على المرء أن يكون نابضاً فيستخدم كلّ طاقته ومرونته قبل أن يحسم أموره. عليه أن يصل إلى حدّ استطالة النابض، ثم، حين يفقد المرونة، يتصرّف.

لذا، فقد قالوا عني: أدهم رجلٌ متجاوز للأزمات الانفعالية. وربما قالوا: أدهم رجل بلا انفعالات، أدهم لا ينفعل.

إن محتويات جسدي واضحة لديّ، إني موقن بأنه لو فُتح جسدي، فستخرج منه هذه العناصر الثلاثة سريعاً، وتندلق على الأرض:

الضجر، الكراهية، الغضب.

ولكن الله لن يرتكب فعلاً كهذا، لن يفتح جسدي، لأن الضجر والكراهية والغضب، المحفوظة داخلي، ستنتشر بسرعة انتشار الأوبئة، وتملأ هذا العالم، شبه الآمن، بأجسادٍ مغلقة.

كنت أتمتّع عندما أسمعِ برجلٍ اغتصب امرأة، لا أعرف ما الذي كان يدعوني للسعادة!

شعرت دوماً بالميل الجسدي نحو النساء المسنّات، مع أني لم أتجاوز الخامسة عشرة بعد. كنت أكره سيرة النساء العفيفات. كنت أبحث وأدقّق في تاريخهن، ويُمتعني الوصول إلى نتائج عكس المعروفة. كنت أحبّ أن أؤكّد أنهن لسن كذلك، ولا بدّ من هفواتٍ في ماضيهن.

لم أفهم حزني أبداً، هذا الحزن الذي رافقني طيلة التسعين سنةً الماضية. فقط أتمنّى معرفة ما إن كان حزني مرتبطاً بما حولي، لأن ما حولي يدعو إلى الحزن، أم أنه يعود إلى تركيبي النفسي، لخللٍ موجود ولسببٍ أزليّ بداخلي وفي تكويني الأساسي.

تُرى، أكانت أمي حزينة لأنها لم تُربِّني، ولأن أبي وجدي أرغماها

t.me/qurssan

على أن تسلّمني إلى جدتي، لتربّيني تلك؟

سيصبح هناك شيء اسمه السعادة المطلقة، فقط، عندما يتقبل الإنسان فكرة الموت، دون نفور أو ألم.

أم أن أمي وجدت من يحمل عنها عبء تربيتي، فوجدت متّسعاً لعلاقتها مع أبي؟

الاكتئاب، هو حالة نفور من الأشياء المعتادة.

عندما كنت أشعر بالاكتئاب، كنت أمارس فعّالية جديدة، فكنت أنسى اكتئابي، وأتحوّل بسرعة، إلى رجل سعيد.

[[كان أدهم يعاملني بشفافية، يأخذ وجهي بين راحتيه، يتأمل عينَيّ ويقبّلهما. كان يقبّل مسامات وجهي، يرتّب حاجبيّ وشفتي وأنفي، كما لو أنه يعيد خلق وجهي. كان يبكي عندما أتألّم، ويصلي إلى الله، كي يوقف ألمي]].

أسند رأسه على المخدّة المزركشة، الملوّنة بجميع الألوان، الأحمر والبنفسجي والأخضر والأزرق والأبيض والأصفر، وكانت له تلك العادة في وضع رأسه على الأرض ورفع ساقيه على الجدار. وللمرّة الأولى، نظر أدهم إلى قدميه بإعجاب، إذ كان على الدوام يشعر بالإحراج من قدميه، كما تشعر امرأة تدخل مكاناً فخماً إذ يلاحظ جميع الحضور خيطاً منسلّاً من جواربها، فتحاول المشي بطريقة تخفي فيها مكان انسلال الجورب. وكان يلبس جواربَ باستمرار، ويفكّر، فيما لو تزوّج، هل سيبقى بجواربه طيلة النهار؟ لا بدّ أنه سوف يضطر إلى خلعهما. أما زوجته، فهل ستتقبّل امرأته شكل قدميه؟ كانت هذه الفكرة تربكه، إذ إن أكثر ما كان يضايقه أن ينظر شخص إلى أصابع قدميه الكبيرتين، المدوّرتين، المكوّرتين، حيث أظافرهما مقطومة في المنتصف، ولم تتابع نموّها، ويقول لنفسه: كيف ينظر بعضهم الناس إلى أقدام البعض الآخر دون أن يشعروا بالإحباط؟

وقد أصيب الرجل بهواجس قدَميّة، فراح يتأمّل كلّ الأقدام التي يلتقي بها، يراقب أقدام الجميع ولا سيّما الأصابع، ولا سيّما

t.me/qurssan

الإبهامات، إذ كان يقول على الدوام: إبهام القدم هي أبشع منطقة لدى الإنسان، ومن هنا يبدأ عري الإنسان.

كان يعتقد أن الحب هو الكشف عن العاهات والعورات لدى المحبّ وتقبُّلها. إنْ تقبلها، كانت مشاعر الحبّ حقيقية. لذلك، كان يشجع أولئك الذين يرون إبهامات أقدام بعضهم دون أن تتغيّر مشاعرهم. رغم أن قدمي أدهم لم يكن فيهما تشويهٌ أو كسر أو بشاعة خلقية، مجرّد هذين الظفرين المتوقفَي النمو في الوسط، اللذين ربما قد وقع عليهما حجر فانقلعا، ولم يتابعا النمو، وهذا لا يدعو إلى اعتبار قدميه أكثر من أقدامٍ عادية أو أقلّ منها.

[[كان أدهم يقول لي: سأكتشف يوماً سرَّ اللفظة، فأنا لا أؤمن أن الألفاظ وسيلة تفاهم فقط، لا بدّ أنها وسيلة خلق. سوف أضع يدي على خدّك ذات يوم فأحوّله إلى تفاحة، وسوف أحوّل شفتيك إلى كرزة، لا بدّ أن يهديني الله إلى سرّ الخلق بالكلمة!]].

عندما كنت صغيراً، وَبَخني جدّي: «أظافر قدميك طويلة، لمَ لا تقصّها؟! الحقّ على أمّك! هذه وساخة حقيقية، وتنقل الجراثيم!».

أيصدِّق أحدٌ أنني، اليوم، لا أجد فرقاً بين أصابع قدميّ وأصابع يديّ، مع اختلاف الحجم فقط.

وشعر أدهم بالرضا وهو يتأمل قدمَيه المرفوعتين، عادةً، على الجدار المقابل لرأسه، ثم يُنزلهما، أيضاً كالعادة، ويبدأ بتنظيف ما تحت أظافره، وبين الأصابع، للتأكّد من سلامتهما الشكلية، وأنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق والخيبة.

أدهم رجلٌ جبّار، عنيف، ساديّ، يتحدّث بطريقة ساحرة، له تأثيرٌ قويّ على مستمعه. من يسمع أدهم يرضخ له، يتأكّد أن أدهم مصيبٌ، أدهم صحيح، لا يخطئ.

[[كنت أخجل وأنا أمرّ أمامه، أشعر أني صغيرة، ضئيلة، أشعر بتفوّقه عليّ، تفوّقاً كلّياً وشاملاً، عليّ وعلى الجميع. كلّما تحدث أدهم وسط جماعة، سكت الجميع، وتكلّم أدهم، إن له سطوة لا تُرَدّ]].

t.me/qurssan

أمّا اليوم، فموقف أدهم من قدميه مختلف.

عندما كنت مع سلمى، خلعت جوربَيّ.

كانت سلمى تداعب شعر أدهم، حين ألقى برأسه على ركبتها. وكان متمتّعاً بشيءٍ لم تعرفه سلمى: أنه دون جوارب، وأن أصابع قدميه كانت تتحرّك بحرّيّة. ولكنّه لم يكن متأكّداً ما إن كانت سلمى قد نظرت إلى قدميه أم لا. ولكن، سواء نظرت أم لا، فهو يشعر بالرضا، لأنه أطلق هاتين الحبيستين من كيسهما القماشي، وأخرجهما أمام سلمى، دون إحراج، ولا خشيةٍ من أن تراهما.

وأحسّ أدهم أنها تُعامِل شكل قدميه، كما تعامل شعره الأسود المتشعّث بين أصابعها النحيلة البيضاء.

[[إني أتصوّر أنه فيما لو نُشر نتاج أدهم الأدبي، فإنه سوف يصنع نعيماً أدبياً، أو جحيماً، ولكنّه، دون شكٍّ، سيكون نقطة علّامٍ كبيرة في تاريخ الأدب الحديث]].

سأضعك في قلبي يا سلمى، ولكن، آه، قلبي نظرياً لن يَسعَكِ.

سأخنقك ذات مرّة، كي لا تنظر إلى امرأةٍ بعدي، ولا تنظر إليك امرأةٌ بعدي!

سأترك في عيني نظرة وادعة، تقول لمن يرى جثّتي: لقد متّ كي أُرضي حبيبتي، التي أرادت موتي! مملوء أنا بك يا سلمى، مملوء وأفيض عنك، تتطاير أجزاء منك عندما أسير، لأني محشوٌّ بكلّك، أنفاسك، لهاثك، عرقك، رائحتك، أصابعك، خواتمك، لهفتك، قبلاتك، لمساتك، نظراتك، توصياتك، ابتسامتك، غيرتك، غضبك، دموعك، طعمك.

[[عزيزي...

ومن الأجدر أن أدعوك بـ أستاذ أو سيّد، أو أيّ لقبٍ يليق بكرسيّك ومركزك، أشفق على نفسي وأنا أكتب إليك.

لِمَ أنت قاسٍ إلى هذا الحدّ؟ وللمرّة الأولى أشعر بقسوتك الهائلة،

t.me/qurssan

إما أني تافهة وحمقاء لأن الصور ركبت معي على هذا النحو، وإما أنك مشبَعٌ بالصرامة وفرض الرأي، بطريقةٍ لم تُدركها إلى الآن.

إني مشوّشة تماماً، مضطربة، لا أعرف كيف أتعامل معك، أشعر بشرخٍ نفسيٍّ هائل. نعم، لقد ولّدت عقدة بيننا، عقدة الحساسية والخوف من الإيذاء، صارت لديك توجُّسات في معاملتي - سببها أنا - من أن تولد لديّ مشاعر الإحساس بالضآلة أو التفوّق، وصارت لديّ حساسية في فتح أيّ حوار.

إني أكره نفسي. أنت رجلٌ عنيف، جبّار، لم ألتقِ في حياتي برجلٍ مثلك، طاغٍ.

ويلي! ويلي، يا أدهم، كم أنا صغيرة ولا شكل لي!

كيف تستطيع فعل هذا بي؟! ستحوّلني بعد فترةٍ قريبة إلى دميةٍ تراقبك فقط، ولا تملك ذاتها، تابعة لك ولا تملك ذاتها.

سأنسحب، لقد أشعرتني أنك لا تثق بمقدرتي الفكرية، وأنا مؤمنة أن كلّ العلاقات التي تفشل، تفشل بسبب الهوة الفكرية.

لن أحتمل منك صورة الأب والمعلّم بعد اليوم.

إنك تظن أنه يعود إليك الفضل في أني هكذا، وأنك ساهمت في صنعي. ولكن، حذارِ، أيّها الرجل المتعالي! حذارِ أن تعاملني من قمّتك الشامخة، وتعاملني على أني الأقلّ والأدنى!

لقد كرهتك، أكرهك عندما تمحوني. قلت لك مليون مرة: لماذا تلغيني؟ لماذا تمحوني؟ كم خجلت من نفسي وأنا أحمل كوبَي العصير وأمشي أمامك بقامةٍ مهزوزة مسحوقة، مهزومة!

أنت تملك مقدرةً كبيرة من الإلغاء والسحق. أنت عالٍ، عالٍ جدّاً، يا أدهم!

لديك سلطاتٌ هائلة من ممارسة التقزيم والتهكّم وتصغير الآخرين. ويل الآخرين منك، يا أدهم! ويلي!]].

عندما دخلت غرفة تلك المرأة، شعرت بالاشمئزاز ما إن أُغلق علينا

t.me/qurssan

الباب. كانت تراودني رغبة عنيفة للإفلات والمغادرة. خلعت قميصها وبقيَت في قميصٍ داخلي شفاف، فجاءتني رائحة عطرها المزعجة. «أكره رائحة العطور الصناعية!». كدت أتقيّأ «كيف سيتم هذا؟». كنت مزيجاً من الخوف والرهبة والاشمئزاز والرغبة في أن لا أكون هناك. «ليت الوقت يمرّ سريعاً!». عندما كنت في منزل عمّي، وكعادة أبي الذي يحلو له النوم على السطح، بكيت طيلة الليل بصمت. كنت أتمنّى أن يأتي الصباح بسرعة، إذ جعلوني أنام في الغرفة، ونام أبي بعيداً عني، على السطح. كم كان الوقت طويلاً! بكيت كثيراً، ثم غفوت. والآن، هل أبكي إلى أن أغفو؟ لن تتركني هذه المرأة أغفو. وشعرت بما يشبه الاعتداء، الاغتصاب. يجب أن أبقى هنا ما دمت هنا، ولا يحقّ لي أن لا أكون هنا. شيء يشبه الدخول إلى المرحاض، وأنت لا تنوي فعل شيء هناك، عليك أن تنتظر إلى أن تتأكد أن موجة هيجان أبيك قد توقفت، وسيكون ضربه أقل عنفاً. كلّما نمت في منزل أحد أقاربي، شعرت بهذا. أحب النوم في بيتنا، حيث أنفاس أمي تملأ البيت، رائحة جدتي وأختي تملأ أنفي. أحبُّ جدّتي بشراسة، أتمنّى أن أعانقها. لقد كبرت على ذلك. لو أنسى قليلاً صور أهلي وبيتنا لهان الأمر عليّ. ولكن، أنا هنا، في منزل امرأةٍ ذات رائحةٍ كريهة، وأمّي هناك، في منزلنا الحنون. أحلم بك يا أمّي. إني بعيد. غداً أراك، سوف أعانقك ولن أعود إلى هذه السخافات. اكتشاف جسدي كلامٌ فارغ. لا أريد أن أكتشف جسدي كالرجال، لا أريد هذه المرأة، ولا غيرها. أريد أمي. النوم بين أحضان أمي أهمُّ بكثيرٍ من أن أصبح رجلاً كالآخرين، رجلاً له امرأة. آه، يا أمي! إنهم يغتصبون طمأنينتي. [[يعتقد الآخرون، الذين هم أقلّ من أدهم، أنه رجلٌ قمعيٌ وطاغٍ. إذا كان الأمر هكذا، فلماذا لا يواجهونه؟ يتحوّلون إلى جرذانٍ وصراصير لدى حضوره، يصبحون صغاراً كالخـ...، وهشّين، أيضاً، مثلها]].

كان أدهم بقامته الطويلة، النحيلة، وذقنه الحليقة، وشعره الأنيق، ونظرته المستقرّة النفّاذة، وتوازن مشيته، كان أشبه برجلٍ ينتمي إلى عدّة جغرافيّات.

t.me/qurssan

كمن وضعوا على صدره أحجاراً ثقيلة، أو كمن قرّروا رميه في البحر وهو لا يتقن السباحة، كان شعوري آنئذٍ. همٌّ كبير ركبني، والهمّ الأكبر هو مغادرتي. بقائي همّ، ومغادرتي همّ أكثر. كرهت في تلك اللحظة كلّ شيء، وأقسمت أن أصفعها، إن اقتربت مني، أضع المخدّة على فمها وأكتم أنفاسها، وأغادر هذا الماخور اللعين. لم أعد أريد، أريد المغادرة. رائحة الرجال في الغرفة. لهذه الغرفة تاريخٌ بشع، تحكي الجدران، تاريخ خياناتٍ ورجالٌ كثيرون، رجال لاهثون خلف المتعة الآنيّة، رائحة أخطاءٍ وآثام.

أحسّ أني في سجن. شيءٌ قسريٌّ هنا، شيء يضطرّك للحلم أن تكون خارج هذا المكان. ليت النوم يباغتني، فأهملها وأنام في قلب هذه الروائح النتنة!

يا لرُعبي! يا لإحباط ذكورتي! أنا رجلٌ دون ذكورة، ذكورتي ميتة وسط هذا الحنين الشديد إلى أمكنةٍ غير هذا المكان. إنها تخلع ملابسها، أقصد قميصها مثلاً. ها قد أطفأت نور الغرفة، وأضاءت نوراً جانبياً أحمر.

يا اللّٰه! تغيّرت الأشياء، كم كان المشهد جميلاً ومختلفاً!

تغيّرت ملامح الغرفة، كأنها غرفةٌ سحريّة، كأنها غرفةٌ أخرى. ارتدت الغرفة ستائر حمراء على أربعة جدرانها، وكست باللون الأحمر السقف والأرضيّة، وسبحت كلّ الأشياء في اللون الأحمر، علّاقة الثياب، مقبض الباب، القفل، المرآة، السجادة التي كانت بنّية اللون، الخزانة، النافذة. تراكض الهواء في الغرفة مارّاً من تحت أنفي، وكذا دخان سيجارتي الأحمر. تركت ظلال النوافذ وتحرّكات الأغصان أشكالاً فنّية على الستائر الحمراء التي كست الجدران، وتسلّل شعاع القمر ليشارك في إضاءة اللوحات الجدرانية، ومرّ خيال المرأة الأحمر عدّة مرات أمام ناظري. كانت المرأة تسبح في اللون الأحمر، وسمعت حفيف ثوبها الأحمر، ولامس كعب قدمها الأحمر قميصي، فارتفعت يدي وأمسكت بالكعب.

ألقيت بالمرأة الحمراء على الفراش الأحمر، ففاحت رائحة

t.me/qurssan

الخريف. وتذكّرت أمراً يشبه الإخلاص، وشممت رائحة العفّة والطهارة والشرعية.

ومن خارج الغرفة عبقت رائحة شجر الآس، وتحرّك وجه الطفل المرسوم بظلال الشجر على الجدار، فأصبح وجه رجلٍ مُسنّ يشبه أحد الحكماء الذين قرأت لهم.

أشعلت المرأة عوداً، ربما كان عود مسك. فتذكّرت على الفور روائح القداسة، والطهارة والألوهية. كان ثمّة شعورٌ بالأمان خالجني، صفَت نفسي، وهدأت روحي، وانتابتني موجة طويلة من الطمأنينة والاسترخاء.

رأيت يدي حمراء اللون تنزع قميص المرأة الحمراء، وكنت خائفاً.

كانت يدي الحمراء ترتجف، وسقطت قطراتٌ على يدي. كنت متعرّقاً بشدّة، وكذلك كنت أبكي، فاختلط دمعي بعرقي وتساقطت قطراتٌ بلّلت يدي. اقتربت من المرأة، وكنت خائفاً. كاد وجهها يلتصق بوجهي، صرت أكثر خوفاً. كلّما اقتربت منها، زاد خوفي. لماذا شعرت بالإثم في تلك اللحظة؟ شعرت أنني أسرق، أقتل، آخذ ما ليس لي، ما لا يحقّ لي. التصقت بي، وذابت المسافة بيننا، وجهها ملاصقٌ لوجهي، خدُّها يمرّ على وجهي، على عنقي. تقتضي الرجولة مني أن أكون فعّالاً، أن أقبّلها مثلاً. نعم، هذا هو المطلوب في هذه اللحظة. سلّمتني جسدها بهدوءٍ ورضا، وكنت مشغولاً بقلقي، مهتمّاً بتفسير أسباب خوفي. ولأني لم أكن أعرف سبب خوفي، ولا سبب شعوري الآن بالذنب، وقع قلبي. فجأةً، تقريباً، أوشكت على الإمساك بالسبب، جاءتني الصورة كاملةً، مباشرة، وقلت بصوت مسموع: يا الله!

[كانت أمي تنام مع أبي في غرفة نومٍ مشتركة، وكانا يضيئان ضوءاً أحمر خافتاً. وكنت أنهض ليلاً، فأسمع همسهما، وأشعر بجفاف في حلقي، فأدقّ عليهما الباب، ويأتيني صوت أمي من خلف الباب:

ماذا تريد؟

t.me/qurssan

ماء.

اذهب الآن!

وكنت أذهب، وأتمدّد في غرفتي تاركاً الباب مفتوحاً. وأرى باب غرفة نوم أبي وأمي ينفتح، فيملأ الضوء الأحمر الصالون، ويقترب من غرفتي، فتسبح الأريكة التي في الصالون واللوحة فوقها باللون الأحمر. وتمرّ أمي مسرعةً بقميص نومٍ شفّاف أحمر، ثم يتبعها أبي، كذلك، مسرعاً، ويكون كلاهما شبه عاريين، فأغوص في السرير، وأتكوّم على نفسي كي لا يلحظاني، وتكون قدماي فقط، والجزء السفلي من السرير، يغوصان في اللون الأحمر، وكنت أشعر بالحقد].

[[من الأسباب التي جعلتني أحبّ أدهم، أنه طيّب القلب إلى درجةٍ كبيرة. يراه الآخرون شرساً وعنيفاً وعدوانياً، لكنّه كالأطفال من الداخل. كلّ عنفه الخارجي مجرّد وسائل دفاعية ضدّ خطرٍ يتوقعه على الدوام. أدهم نظيفٌ وجميل من الداخل، لكنّه من الخارج قاسٍ وعدوانيّ وشرّير. وأنا أردّ ذلك إلى قلقه الدائم، فأدهم لا يشعر بالطمأنينة أبداً. إنه قَلَقٌ متحرّك. لو راقبته وهو نائم لتأكّدت من حجم قلقه. فهو يرتعد في كلّ لحظة، يتغطّى بأغطيةٍ متعدّدة، يلفّ جسده بشراشف طويلةٍ وكبيرة وكتيمة، ويرتعد طيلة نومه، ويرتجف، ويشخر، ويتعرق.

طفلٌ خوّاف في قالب رجلٍ قويّ، والسيطرة على عدوانيّته الظاهريّة سهلة، تتلخّص بكلمة واحدة: «نحن نحبك»]].

كنت في مرحاض عمي، وكان ممدوح يداعبني، ففتح باب المرحاض بينما أنا...، وفي تلك الأثناء، مرّت سلمى. كانت تطعم الكلب، وكان بيت الكلب قريباً من المرحاض. لم أتأكّد مما إن كانت قد رأتني أم لا، ولكنّي ارتبكت بشدّة، ولم أجرؤ على النظر في عينيها طيلة ذلك النهار.

ولمّا اجتمعنا على مائدة العشاء، تحاشيتها، جلست بعيداً عنها. كانت تتحدث إليّ، فأحسّ أن كلّ كلمةٍ من كلماتها تحمل السخرية

t.me/qurssan

والتهكّم، وأنها تتذكّر فتتهكّم على مؤخّرتي و...

مرَّ على هذا الموقف أسبوعٌ بكامله، أسبوعٌ وبضعة أيّام، يومان أو ثلاثة. واليوم، كنت أيضاً في الموقف نفسه، وقد أقفلت باب المرحاض جيداً. وراح ممدوح اللعين يداعبني بمزاجه الثقيل، ويشدّ الباب. وكنت جالساً بمزاجي، أمارس ساديّتي على ممدوح، أسخر منه وأنا أخ...، وكان صوت خ... يصل إلى أذني ممدوح. وكان يشدّ الباب، وقد أحكمت السدّ. كلّما زاد الشدّ، زدت السدّ، سددت الباب جيداً. هو يشدّ وأنا أسدّ، وظلّ يشدّ ويشدّ.

وفجأةً، يا للّعنة! كيف حصل هذا؟

يا لسواد وجهي! لقد انفتح الباب، وكالحلم، تماماً كالحلم. لا أصدِّق أن هذه المسخرة تتكرّر، كما حدثت في المرة السابقة، بالتفاصيل نفسها: مرّت سلمى، كانت تطعم الكلب، مرّت وأنا أقعي على فعلتي، ولم أتأكد - للمرة الثانية - ما إن كانت قد رأتني أم لا. كان هذا التكرار القاسي لما حدث، قد أنهى إمكانية ذهابي إلى منزل عمي. وكنت أتحاشى سلمى في كلّ الأمكنة التي عرفت أنها فيها، وكأنها كانت تلاحقني، وتذكّرني، بمنظري مُقعياً فوق حفرةٍ تنزل فيها فعلتي ذات الرائحة وذات الصوت.

[[حلمت على الدوام، برجلٍ يخلّصني من سلطة أدهم عليّ. فلأدهم سلطةٌ لا تقاوم. كنت أحبّه ولا أعرف لماذا. حاولت مراراً الانسلال من هذه العلاقة. ولكنّي كلّما اتخذت قراراً بتركه، وابتعدت عنه، عدت إليه، كطفلٍ صغير لا يفكّر إلا بما يريد.

رجولة أدهم لا تقاوَم. رجولته مقرونةٌ بشخصيّةٍ أبويّة خارقة. إنه رمز العطاء رجلٌ هشٌّ من الخارج، أكره سلوكه مع الغير، أشعر أنه مخصيّ، يهمّه جدّاً إرضاء الغير. يبرّر لي دوماً أنه يكره الأذى، يقول لي:

لو كان لي رأيٌ سلبيّ، أو نقدٌ لسلوك شخصٍ ما، أو فكره، فإني لا أُعْلِمه ما لديّ حفاظاً على أن لا أؤذيه.

كانت تهمّه بشدّة مشاعر الآخرين، وكان هذا يتحقّق على حسابه.

t.me/qurssan

فقد عاش للآخرين، أكثر مما عاش لنفسه. لذلك كنت أحسّ بمشاعر متناقضة، متداخلة، متشابكة نحوه. وأكوّن عنه آراء كذلك مختلفة، متغايرة، غير ثابتة. أراه جباناً لا يحبّ التغيير، خشية التغيير، ضعيف الشخصية، خجولاً، مسايراً. ولكن أدهم، معي، مختلفٌ، رجلٌ غير ما هو عليه مع الآخرين، الغوغاء. أدهم معي هو أدهم الأساسيّ، ممتِع، مبادِر، قويّ، لا يسكت عن خطئي، ولا يسكت عن تداخلي فيه، لا يسايرني، ولا يجاملني، لا يتملّق. أحبُّه، أحبّ صلابته، مواقفه الحاسمة النهائية، إيمانه بالحسم النفسي. عندما يقرر أن يتعامل مع شخص، فهو يتحمّل هذا الشخص بصبرٍ وطول بالٍ، وعناد، وإصرار. وعندما ينهي علاقته مع شخص، فهو لا يعود إليه مطلقاً. ويقول أدهم: عندما أغادر، فإني أغادر، وعندما أقرِّر ألا أعود، فإني لا أعود]].

من الصعب، بل من الغباء، أن نضع أيّ فنّان على طاولة التشريح النفسي، فمهمّة علم النفس أن يعيد المريض أو المرء، إلى حالة الطبيعية، والفنان ليس كائناً طبيعياً.

الفنان هو نموذجٌ بحدّ ذاته، علم النفس يسعى إلى إعادة المرء إلى الحالة السويّة - الطبيعية، بينما الفنان مختلف، وهو النموذج الأرقى الذي يجب أن يصعد إليه علم النفس. الفنان هو النموذج الذي يسعى العلم إلى الارتقاء إليه، لا تشويهه عن طريق تحليله وتشريحه.

الفنان كائن غير طبيعي، مهمة علم النفس إعادة الإنسان إلى حقل العاديّة، أيّ قتل الجانب المتطرّف والفنّي في الفنان.

لذلك، فإن علم النفس لم يستوعب بعد الحالات الفنية، وظلّ علم النفس متأخراً عن الفن.

الفن هو الذي يوحي إلى علم النفس، ولا يُوحى إليه.

هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها منزل امرأة غريبة عني، ليست من أهلي أو أقاربي، إنه منزل سلمى. تركتني وحيداً في الغرفة، وخرجت. إنها في المطبخ على ما أظنّ، تعدّ القهوة، أسمع

t.me/qurssan

أصوات فناجين وصنبور ماء. دخّنت طويلاً، ولكن سلمى لم تعُد إلى الغرفة. شعرت بالوحدة، ثم بالخوف. هذا المكان يخيفني، مكانٌ غريب جديد، متفرّد. ثمّة لوحةٌ أمام ناظري، نهضت عن كرسيّي وذهبت إلى اللوحة. خلف اللوحة كان الجدار نظيفاً. لقد وضعت اللوحة هنا حديثاً، ولم تكن هنا من قبل. صورة بغال، ثلاثة بغال مختلفي الأحجام. لماذا وُضعت هذه اللوحة تحديداً؟ أتعني أمراً ما باختيارها؟ أم أنها وضعتها هنا عبثاً؟ أتكون قد اختارت اللوحة لتوصل إليّ أمراً؟ ماذا تريد أن تقول إذاً؟ أني بغل؟ ومتى يعدّ الرجل بغلاً؟ تعدّ المرأة الرجل بغلاً إذا لم يتحرّش بها. أتريدني أن أتحرّش بها؟ أتشجّعني؟ أتفتح أبوابها بوجهي؟ لماذا ثمّة ثلاثة بغال؟ كبير وصغير وأصغر؟ أتحاول وضع درجاتٍ لحالات الغباء التي تنتاب الرجال؟ ربما أنا مخطئ، فالمرأة لم تنتقِ اللوحة أصلاً، إنما جاءتها كهدية مثلاً. إنها بريئة، لا تقصد أيّاً مما ظننت بها من أفكار. سلمى ليست كباقي النساء. إنها ليست متآمرة مثلهن، أولئك اللواتي يخططن للإيقاع بالرجل، سلمى واضحة، صريحة، لا تخطّط ولا تبرمج.

يذكّرني البغل الكبير بكلمة إحدى زميلاتي في الجامعة، فقد قالت لي: صحيح أن جسدك ضخم كالبغل، ولكن قلبك رقيق كقلوب العصافير!

كان رفاقي الجامعيون يسخرون من بدانتي، وكرشي الكبيرة، ولكنهم يقولون: أدهم روحه حلوة، دمه خفيف، ذكي وسريع البديهة، ومرح.

ولكن سلمى لا تعرف رأي رفاقي بي، ولا تعرف عني سوى زمالتي السطحية لها في العمل، لا تعرف عن ذكائي ومرحي وطيبتي، لا تعرف.

لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ أتشعر أنها متورّطة معي؟ نادمة على مجيئي إليها؟ أتتجاهلني لأنصرف؟ إنها محقّة، فما الذي ستحقّقه امرأةٌ رشيقة، جميلة، شهيّة، من رجلٍ أربعينيّ، ضخم الجثة؟! وما يزيد الطين بلّة، هذه الكرش. يجب أن أنصرف. إنها تتركني على

t.me/qurssan

ذوقي، ولم أفهم هذا إلى الآن، يجب عليّ الانصراف.

كلّا! لماذا أنصرف دون إعلامها؟ إنها مشكلتها إن كانت تجد نفسها متورّطة، عليها أن تُغلمني برغبتها المباشرة في مغادرتي، وبما أنها لا تعرف عن ذكائي شيئاً، فكيف أفترض أنها توحي إليّ بالمغادرة، ولا تصرّح بذلك؟ ربما أنا واهم، وأنها مشغولة فعلاً. عليّ إذاً انتظارها، لا بدّ أن تأتي.

أتحبّ سلمى البغال؟

لدى النساء هاجسٌ واحد: السيطرة على رجالهن، أن يكون الرجل كالبغل أو الحمار، تحتهن، وهنّ فوقه. ربما تريد سلمى أن تحسّ أنها راكبة، وليست مركوبة، وهذه الصورة تساعدها على تصوّر أنها ليست مركوبة، أن الرجال بغال، يسهل ركوبهم.

آه! لماذا لم تركبيه يا أمي؟ لماذا تركته يركبك ويرسل ساقيه فوقك، يدلّيهما، يعقلهما في رقبتك؟ هل ستركبني سلمى كما ركب أبي أمي؟ هل ستركبني وتضع طوقاً في عنقي، وتدلّي ساقيها من فوقي؟ أهذا ما ترمي إليه سلمى؟ إني أفهمها. كلّ النساء مستبدّات، يحلمن برجالٍ يركبونهنّ ويدلّين سيقانهن فوقهم. كلّهن يُرِدن أن يكُنّ راكباتٍ، غير مركوبات. والرجال، أوه من الرجال! أيضاً هم مثلهن، يحلمون كما يحلمن، أن يركبوا لا أن يُركبوا. وهكذا، تبقى العلاقة بين الطرفين في صراعٍ واقتتالٍ واحتدامٍ على الركوب، شجار دائم بين الراكب والمركوب، على من يركب ومن يُركب.

[[إني لا أفهمه، حائرةٌ في أمره، أأحبّه؟ أأكرهه؟ لا أعرف. أراه عظيماً، أراه تافهاً، يتعامل معي كما يريد: إن كان مبتهجاً فهو يفرض سعادته، وإن كان كئيباً، أيضاً، يفرض حالته. يقيّدني في حالتَي فرحه وحزنه. يتعامل وفقاً لما يريد، ويجبر الآخرين، بجبروته وقوّة إرادته، على التعامل معه تبعاً لرغبته وميوله. فهو، إن أراد أن يحبّه شخصٌ ما، يستطيع أن يوصل الشخص إلى ذلك. وإن ابتغى أن يبتعد عن شخصٍ ما، يستطيع إثارة كراهيته لدى

t.me/qurssan

أحقد عليه أحياناً، وأكرهه، متمنّيةً له الشرّ. حيناً أشفق عليه، فأبكي إن آلمه إصبعه، وفي أحايين أخرى أتمنّى أن تنكسر ساقه. والسبب في كلّ ذلك يعود إليه لا إليّ، فأنا لست متقلّبة، ولكنه شخص غامض، لا أعرف منه سوى ما يريد أن يعرِّفني به، يُفهمني أنه واضحٌ معي، مكشوف لي، سهلٌ وبسيط وصريح، ولكنّه سرّيٌّ جداً، متكتمٌ، ديبلوماسيّ، معقّد التركيب، شخصيته ذات أبعادٍ كثيرة، متشعّبة، متفرّعة، ربما أقضي كلّ عمري معه، ثم أخرج إلى الملأ معلنةً: إني لا أفهمه]].

كنت أداوم على الدفاع عنه، أمام نفسي، وأمام الآخرين. فكلّما انتقده شخصٌ أمامي، برّرت لأبي خطأه، وكنت موقناً في أعماقي، أن أبي لا يخطئ، إنه متعالٍ عن الخطأ، مترفّع عنه.

عندما كنّا ندخل - أنا وأبي - إلى أيّ مكان، حتى الأمكنة العامة التي لا يعرفنا أحدٌ فيها، كنت أرى الترحاب والتهليل به، كان يُقابَل بودٍّ هائل، وكان يودُّ الجميع، فيحبّه الجميع، الأطفال، الشباب، الكبار، وتكوّنت فكرةٌ ثابتة راسخة في رأسي، لا تحيد ولا تتزعزع: [أبي بلا أخطاء].

كنت أسأله عن كلّ ما يصادفني، وكان يردّ على جميع أسئلتي، تساؤلاتي، مخاوفي، استفساراتي الكونية، استشاراتي عن سلوك الناس وكيفية تعاملي معهم، تقييمه لهم، حتى عن الطقس القادم كنت أسأله. كنت أكبر، ويكبر أبي معي، كنت أنمو، وهو ينمو بداخلي، كلّما طالت قامتي استطال أبي داخلي.

ولكنْ،

عندما هجم علينا جيراننا الهمجيون، استقبلهم أبي بابتسامةٍ وودّ، كما هي طبيعته وسجيّته. ولكنّهم، حيواناتٌ شرسة لا تفهم الإنسانية: شدّوه من شعره، أمام ناظري، وأخرجوه بعيداً عن باب دارنا. ضربوه أمام الدار، أمام أنظار الحارة جميعاً. ذهلت، يا للآلهة! كم شعرت بالذلّ في تلك اللحظة! خرجت عن رشدي، كدت أجنّ، تكسّرت مقولاتي التي جمعتها طيلة السنين المنصرمة عن

t.me/qurssan

أبي العظيم، القوي، الأسطورة، الذي يفهم في كلّ شيء، والذي عنده حلٌّ لكلّ شيء، أبي الذي يعلو الجميع، ولا يعلوه أحد، أبي مثلي الأعلى، منيري ومنارتي، أبي... أوه! تكسّر أبي أمامي وتشظّى ذرّاتٍ من الآباء المسحوقين وتكسّرتُ.

ولما تكسّرتُ وتشقّقت جدران قلبي، انفجر بداخلي سائلٌ لعين. ثم اندلق نحوهم، ولم أعِ ما حصل، كأنّ شخصاً آخر قد خرج مني، ووضعني على الرف، وتصرّف بدلاً عني. أتيت بمسدّس أبي، وصحتُ بهم: [الرجل منكم يقترب!]، حملقت أمي برعب، أمي الحيادية نحوي: [أبوس إيدك يا أدهم، اخزي الشيطان!]، ولكن أبي، أبي والدم نازف من شفتيه وأسنانه، وأمي الحيادية / اللاحيادية الآن، وعيونهم الواجفة، هذا القطيع من الذئاب البشرية، الذين استذأبوا على أبي، كلّ ذلك دفعني لمواصلة الموقف حتى آخره، فأيُّ خطوة تراجع، ستجعل من أبي أضحوكة، ومني أهزوجة، وستُنزل أمي غطاء رأسها على وجهها وتنشج.

كان الرجال الهمجيون، المتوحشون، يقفون وسكاكينهم وأحزمة بناطيلهم، راجفين، والمسدس في يدي وقد لقّمته أمامهم، وأول طلقة منه كانت ستقتل أحدهم. كان عقلي يقول: اكتفِ بهذا! لقد استعدت كرامة أبيك المهدورة. ولكن ذلك السائل اللعين، الذي تمكّن مني، ولم أتمكّن من إيقافه، والذي يسمّونه الغضب، كان ضخماً وكثيراً وكثيفاً، ملأ عيوني وآذاني ولساني وجميع حواسّي، سدَّ أبواب عقلي وتفكيري ومنطقي، ولم يتمكّن الرجل الذي استيقظ فيّ ليضعني على الرفّ، ويتصرّف عوضاً عني، لم يتمكّن من مقاومة الغضب، ولم يمسك نفسه عن ضغط الزناد، فضغط. وقتلت ستة رجال دفعة واحدة، أفرغت مسدسي، وأفرغت جسدي من سائله اللعين.

كانت أمي تبكي، وكان أبي الخائف على مستقبلي يشعر بالزهوّ، فشعرت بمتعةٍ هائلة، وشعرت بالعدالة. أمي الحيادية صارت لا حيادية، وأبي المذلّ صار مزهوّاً الآن، وأنا، عدت من الرفّ وجلست منتظراً رجال الشرطة بهدوءٍ تامّ.

t.me/qurssan

[[ما الذي فعلته بأبويّ حتى يرزقني الرب بولدٍ كهذا؟! إنه لا يعيرني اهتماماً، لا يحبّني، قاسٍ، فظّ.

أقسم أمامي مليون مرّة إنه، لو متُّ، فلن يخرج في جنازتي! لماذا يتركني هكذا ملتاعة عليه، محترقة، لا أعرف له أيّ عنوان؟ يا إلهي! لماذا تعاقبني بهذا الولد؟ لم أكن عاقّة لأبويّ، إني لا أنام بسببه، ولا آكل، ولا أتمتع بشيء في الحياة. دوماً، هو بعيدٌ عن ناظري، مشاكس، كثير المشاكل، يقتل الناس ويتشاجر معهم، يجلب لنفسه المشاكل]].

كلّ الذين قاطعوني وتركوني، ظلّوا يحبّونني حتى بعد قطيعتهم تلك. إني أعتبر نفسي الأهمّ، لا تعالياً ولا غروراً ولا نرجسية. ولكن من يتعامل معي لا يتركني، وإن تركني فهو لا يفعل عن طيب خاطر، إنما لأني لا أريده، فأضطرّه إلى تركي، إذ أتعامل معه بفظاظةٍ وغلاظة قلب لينفضّ عني. ولكنه يظل في أعماقه باقياً على حبّه لي، وأنا أتجاهل هذا الحب، وهو يتجاهله عن كبرياء، ولكنه في عمقه، يدرك أنه خاسر، وأنه مهزوم، لأنه لم يحظَ بالتعامل المستمرّ معي.

[[أُسمّي تلك المقدرة لديه بـ «سلطة الإلغاء»، فحيثما يجلس أدهم، يُلغى الآخرون. اختصمت معه عدّة مرّات لأنه يلغي وجودي.

بدلاً من مطالبتي بتخفيف حضوري، زيدي من حضورك!

أنت لا تترك لي مجالاً للظهور.

أمرٌ غريب أن يطالبك الآخرون بالتخفيف من مقدراتك، وأن يعاقبوك لأنك متفوّق!

أنت مغرور.

أنت تطالبينني بألا ألغيك، ماذا أفعل إذا كانت ثقتك بنفسك ضعيفة؟!

أنت طاغٍ حتى العظم، تسري الساديّة في دمك.

t.me/qurssan

اسمحي لي بأنك صغيرة وليست لك قامة.

كان يستمرّ جدالنا لساعات. ثم يقترب مني، ويأخذ يديّ بين كفَّيه ويقبِّلهما، فأعبث بشعره وأقول له بشيءٍ من الحقد اللاهي: أنت لئيم، تقضي على كلّ الموجودين، وتبقى وحدك المسيطر!]].

إني أقتلك كلّ يومٍ، يا سلمى، أقتلك في كلّ ليلةٍ حتى أتمكّن من النوم. لن أنسى حياديّتك تجاهي، تجاهلكِ إياي، إهمالك لي، لا حبَّك ولا كرهك، لا قبولك ولا رفضك، إنما، وعلى الدوام، إهمالك.

إني أملأ يدي من دمك في كلّ ليلةٍ، حتى أتمكّن من النوم، متخيّلاً توسّلاتك وتضرّعاتك. تُرى، أسأقتلك يوماً في الحقيقة دون الخيال، لأتمكن من معرفة رأسك فيّ؟

[[انتابتني في ذلك اليوم حالة اكتئابٍ حادّة. كان لفيف الأصدقاء مشغولاً بحوارٍ لم أنتبه إلى مضمونه، وكنت جالسة إزاء أدهم على الأرض. وضعت رأسي خلف ظهره، على مخدّته المسنود ظهره إليها، ورحت أبكي بهدوءٍ دون أن أُشعِر أحداً بي. انحنى أدهم إلى الأمام قليلاً وقوّس ظهره، فحجبني بانحناءته عن الباقين، وصار حجاباً يحول دون رؤيتهم لي، دون أن يعلّق، وبقي طويلاً على انحناءته تلك، وخلته لم ينتبه إليّ.

في اليوم التالي، نظر إليّ بودٍّ شديد وابتسم بهدوء: البارحة كسرتِ لي ظهري!

إن أدهم رجلٌ عميق، رجل لا يتكلم، بل يفعل. يكره اللغة والثرثرة، يقول: للكلام رذاذٌ مزعج، أكرهه، وأحب هالة الفعل، وأكره أولئك الذين يثيرون حولنا رذاذ كلامهم وجعجعة طواحينهم.

أدهم رجلٌ ذكيّ ومرعِب لحدّة ذكائه، عبقريّ، رجل حكيم، كحكمة شيخٍ يبلغ المئة عام. إنه باختصارٍ بالغ: رجل مختلف]].

قسماً بملمس فخذَيكِ، الذي لا يختلف عن ملمس خدّك، إنك امرأة مهمّة، عظيمة، طاهرة، أهمّ وأعظم وأطهر من أمي إن لم تكوني توازيها.

t.me/qurssan

امرأة بيضاء، جسد بضّ، ممتلئ بلحمٍ صافٍ، نقيّ، مشدود، قيل عنها: سيّئة، رديئة، تسبّب الأمراض. ولمّا جلست جوارها...

كانت تدخّن، وكنت أدخّن، كانت تشعر بالملل، وكنت أشعر بالملل، كانت حزينة وكنت حزيناً، كانت شاردة وكنت... كانت مقهورة، وكنت...

أرخيت رأسي على كتفها، فأمسكت بكتفي وراحت تسرد لي. كلّما سردت جملة جديدة، غيّرت اتجاه تمريرة يدها على كتفي. وكلّما غيرت اتجاه تمريرة يدها على كتفي، ارتعدت، وأصبت بقشعريرة. ما كنت أسمع ما تقول، كنت أتأمل ساقيّ، والشعر النامي بكثافة مختلفة التوزيع، من الساق حتى الفخذ. وكنت أنتظر تغيير اتجاه يدها كي أقع في شهقة داخلية، شهقة الهبوط، تسبّبها تلك الرعدة الخفيفة التي ترافق انزلاق كفّها المليء بالحنان وارتفاعه، على كتفي المليء بالنقص إلى الحنان. كانت يدها على كتفي، تشبه دراجة أبي الناريّة على الطريق الإسفلتي، ونحن ذاهبان إلى الصيد، حيث يقع قلبي بشهقة داخلية عندما تهوي الدراجة النارية قليلاً في منخفض يشبه ما يسمّيه علماء الطيران بـ المطبّات الهوائية، عندما ينحدر الطريق وفجأة يعلو على الفور. وكنت أتهيّأ نفسياً للعلو المفاجئ يتلوه الدنوّ، لأتجنّب تلك الشهقة. ولكن التمرين لا ينفع، إذ أُفاجأ بالشهقة اللذيذة. كانت يدها تروح وتجيء على كتفي، بينما لا تفارقني صورتان: ركوبي على الدراجة النارّية ممسكاً بكتفَي أبي القويّتين، وثديُ أمّي المرمي في فمي، أتلهّى به متدلّياً فوق فمي، دون حليب، وهي تقطع رؤوس البامية. كانت جدّتي تصيح بها: [أنت تدلّلينه كثيراً!]، وتضحك أمي بودٍّ لا مبالٍ: [دعيه يتسلّى!]، فتردُّ جدّتي بحنقٍ: أصبح رجلاً، لا تعامليه كولد!

كانت أمي تبتسم بلا مبالاة تاركةً ثديها متدلّياً خارج ثوبها، معلّقاً فوق فمي، مترجرجاً، وأنا أتسلّى به بشفتيّ وأسناني، رغم يقيني أنه بلا حليب، ولكنها كانت متعتي القصوى. كانت تسرد وأنا أشرد. ورفعت رأسي فجأةً إلى وجهها لأقبّل شفتَيها. كانت تمطر، كانت تبكي بينما ألهو بتذكّر ثدي أمي ودراجة أبي، ممارساً لعبتي

t.me/qurssan

المفضّلة، وتسليتي العظمى: [الشطط الخيالي]. ولم أكن قد سمعت أيَّ كلمةٍ قالتها هذه المرأة. قبّلت عينيها: أنتِ أعظم من أمّي، رغم أنها كانت تسمح لي بتلك التسلية وهي تقطع رؤوس البامية والفاصولياء.

[[لا يمكن أن يمرّ أدهم دون أن يترك أثراً خلفه، لا يمكن أن يكون مروره مجانياً. عندما أراه من بعيد، أرقب مشيته، حركاته، أقول لنفسي: إنه مختلف، حتى في هيئته، وأذكر مقولته: ليس المهم الشكل، إنما المهمّ حركة الشكل، الحركة هي التي تترك الأثر. وأستطيع القول دون مجازفة أو تورّط أو مبالغة:

إن أدهم بن ورقة أكثرُ من ترك أثراً في حياتي، وإن أكثر من عاملني بشكل صحيح هو أدهم. وأقول أيضاً: أنا وجميع الذين تعاملوا مع أدهم نقسم حياتنا إلى قسمين: قبل أن نعرف أدهم - بعد أن عرفنا أدهم]].

لأن أمي امرأةٌ قيادية، تحبّ تسيير الأمور على هواها، ووفقاً لمزاجها وأحكامها، ولأن أبي رجل مسكين، درويش، مخصي، ليست له كلمة في البيت، يروح ويجيء على هواها، لا حول له ولا قوة، فقد سئمت أن تحكمني امرأة، سئمت أن يحكمني الآخرون. كتاب المواقف مُلقى بجواري، يبدو أني قرأت منه بعض المقاطع ليلة البارحة. سأقرأ قليلاً منه فقد يصحو ذهني، فأنهض وأصنع القهوة.

أفّ! لا أفهم شيئاً مما أقرأ. دماغي مغلق. إني مرهَق إلى درجة عالية. لو لم يكن اليوم يوم عطلة، لكنت نهضت قبل ثلاث ساعات من الآن، ولكنت الساعة في عملي، أشتغل كالمكوك. أنا كسولٌ، تنبل، فعّالتي إجبارية، نشيط في العمل، وكسول في المنزل. حقّاً، أنا لا أستحقّ الحرية، لأني لا أتقن استعمالها. يجب أن يكون فوق رأسي عصا، كأني عربةٌ تحتاج إلى حصانٍ ليحرّكها، ولم أصل إلى مستوى الإحساس بالتخلّي عن إحساس العربة والانتقال إلى إحساس الحصان.

أنا عربةٌ تسير مجبَرةً بناءً على حركة الحصان، والحصان لديّ

t.me/qurssan

هو الحركة اليومية الإجبارية بقانون العمل - قانون العلاقات - قانون التعامل.

هيّا يا أدهم! هيّا يا عربةً تافهة، حرِّك حصانك النائم! أيقِظه وانهض لصنع القهوة! ستشرب القهوة فتستعيد حيويّتك. هيّا! فبعد ساعتين من الآن لن تستطيع الاتصال بها، ومن المعيب الذهاب إليها دون موعد، إذ إني لا أعرف شيئاً عن وضعها الحالي، ربما لديها صديق ولا تريدني، ربما تزوّجت، ربما ماتت.

لا بدّ إذاً من موعدٍ مسبَق، هيّا! يجب أن أتصل بها قبل مغادرتها العمل.

يبدو أني سكران، أرى أشياء وهميّة، ملأت مغلاة القهوة بالماء، ثم فتحت الثلاجة بدلاً من إشعال النار. قفز جرذٌ من الثلاجة. كلّا، ليس جرذاً، إنها بطّيخةٌ صغيرة تدحرجت على الأرض. أفَ! رجلٌ كسول. أصبحت الساعة الآن الثانية عشرة، بقي على مغادرتها العمل ساعة واحدة ولم أجهز بعد. حسناً! لن أربك نفسي في محاولة أن أكون جاهزاً خلال ساعة، فأنا لم أرَها منذ شهورٍ طويلة، ويجب أن أكون مستعداً للقائها. لم أحلق ذقني بعدُ، ولم أكوِ ملابسي، ولم أغسل شعري. كلّ هذا سيأخذ مني وقتاً يزيد على الساعة، وسأصل إليها ملهوفاً، مرتبكاً، بسبب العجلة. لن أعجَل، ما زال الزمن طويلاً، سأؤجل اللقاء بها حتى الأسبوع القادم، يوم عطلتي القادم. حسناً! هكذا أفضل، ارتحت الآن. أكره الالتزامات، غداً أتّصل بها من عملي، وأحدِّد لها موعداً في يوم الإجازة القادم. أوف! سأعود إلى الاستلقاء في فراشي إلى أن أستعيد نشاطي وحيويتي.

نشأ أدهم بين ست بنات، وكان الصبيّ الوحيد. كانت أخواته يقفزن عليه ويتسابقن لاختطاف قبلة منه، الواحدة قبل الأخرى. كانت مراسم الاستقبال تتمّ كلّما دخل أدهم المنزل، وتتعلّق به البنات إن قرّر المغادرة: ابقَ قليلاً! خذني معك! لا تذهب الآن! أجِّل موعدك! هل المباراة أهمُّ من التحدّث معي؟! أريد مشورتك في أمر! ابقَ! عندي مشكلة، أنا بحاجة إلى الكلام معك! إني

t.me/qurssan

مشتاقة لنكاتك الظريفة! ابقَ هنا وادعُ أصدقائك ليأتوا بدلاً من أن تذهب أنت!

وكان أدهم يتملّص بصعوبة، ويضطرّ أحياناً إلى الكذب، فيدّعي أنه ذاهبٌ لشراء علبة دخّان. ثم يذهب ولا يعود. أو يغافلهنّ بالذهاب إلى المرحاض، ومن هناك يتسلّل إلى الخارج. كنّ ينتظرنه في الليل ليثرثرن معه، كنّ لا ينفن إلى أن يعود أو يغافلهن النوم.

كان أدهم يستوعب أخواته، كنّ يحكين له غراميّاتهن، علاقاتهن، أسرارهن، مخاوفهن، حتى يُسررن إليه عن آلام طموثهن ومواعيدها. وكان رفاقه يداعبونه قائلين: أدهم أخو البنات، تربية نسوان!

من المفترض أنه يوم إجازة، ولكنّه يومٌ مرهِق أكثر من يوم العمل. أكره أيام الإجازات والعطل، لأنه ينبغي عليّ التفكير طيلة الليلة التي تسبق العطلة بمخطّط الغد، وفي الغد [يوم العطلة] لا أفعل أيّاً ممّا قدرت على القيام به، فـ مثلاً:

ليلة الإجازة:

مستلقٍ في فراشي بعد يوم عملٍ كامل، حان موعد نومي، غداً يوم عطلتي الأسبوعية، سأتمّ زياراتي في الغد، أو على الأقل، ما أتمكن من القيام به من زيارات. وسوف أذهب إلى الحديقة، حيث كنت أذهب إليها كلّ صباح، حتى عندما اشتغلت. كنت أصحو باكراً للتجوال فيها قبل ذهابي إلى العمل. كانت الحديقة طقساً لا أستطيع إكمال يومي دونه، كنت أحسّ بالقلق والاكتئاب إن لم أفتتح يومي بالذهاب إليها.

كان أدهم يميل في أحيانٍ عدّة إلى العاديّة، وكان يجد ترفاً هائلاً في تلك العادية، الجلوس العادي في الشرفة، شرب القهوة العادي، التلذّذ العادي بالاسترخاء لساعاتٍ طويلة، ولم يكن يؤذيه شعور أنه شخص عادي.

وسوف أذهب إلى السينما، يا للآلهة! كم كنت أحب السينما! في

t.me/qurssan

مراهقتي كنت أحلم أن أصبح ممثلاً سينمائياً، وقد احتفظت، آنذاك، بصور جميع الممثلين الذين رغبت في أن أصبح موازياً لهم، وألصقت صورهم على جدران غرفتي.

كان أدهم رجلاً مزاجياً بكثرة، كان يقطع علاقاته مع الآخرين دون مبرِّر، ويعود للتعامل معهم عندما يرغب، دونما مبرّر أيضاً، كان هو الذي يبتر العلاقة، وهو الذي يعيد الوصال.

وكان شخصاً متعصّباً بشدّة، ولم يكن مرناً على الإطلاق. فقد تعصّب أدهم لمن يحبّ، فألّهه، وفرض حبَّه على الجميع، وتعصّب ضدّ من يكره، ففرض كراهيته، بسلطةٍ طاغية، على الجميع أيضاً.

وقد دخل أبي ذات مرّة إلى غرفتي، فشهق دَهِشَاً: ما هذا؟ معرض؟ استديو تصوير؟

وطلب مني إزالة الصور وتنظيف الجدران، وعندما كبرت قليلاً رحت أحلم بالإخراج السينمائي. يا لي من أحمق! كيف ارتكبت هذا الإثم بحقّ نفسي؟ سنة يا أدهم، سنة كاملة مضت على آخر مرّة دخلت فيها السينما، أنا الذي تشكّل أحلام يقظتي أفلاماً روائية طويلة وقصيرة وتسجيلية! يا للغدر! حسناً، غداً أذهب إلى السينما، وإلى الحديقة طبعاً. ياي! يا للنشوة! غداً سأفعل كلّ ما أهملته منذ فترة: الأصدقاء، الحديقة، السينما، وتلك المرأة.

يقول أدهم عن نفسه: أجهزة الاستقبال عندي معطلّة، أفتح لشخصٍ الباب متجهّماً، يبتسم الشخص فلا أبتسم، يلقون عليّ التحيّة فلا أردّ، يطلبون مواعيد فلا أتجاوب. أنا رجلٌ بلا تجاوب، لا يهمّني رأي الآخرين بي، ولا يهمّني تقييمهم، لا يزيدني ولا ينقصني، لا يطوّلني ولا يقصّرني، لا يترك أيّ أثرٍ. لذا، أدير ظهري باستمرار لآراء الغير، أكره التجاوب مع مبادرات الآخرين، لأنه ردّ على تلك المبادرات، وأحب دوماً، من باب النرجسية، أن أكون المبادِر في كلّ شيء، في التعامل وافتتاح العلاقات، وفي الكفّ عن التعامل وقطع العلاقات.

يا إلهي! كدت أنسى. إنه أمرٌ هام جداً. منذ شهور وأنا أؤجل اللقاء

t.me/qurssan

بها، ولكن عليّ حسم الأمر، غداً أراها. إني أشعر بالذنب تجاه نفسي، كيف حرمت نفسي من هذه المرأة؟ كم أنا مجنون! غداً أراها. يا إلهي! أحسّ بمشاعر غامضة عندما أذكرها، يسترخي جسدي وأحسّ بالأمان كما لو أني مستلقٍ في حضن أمي.

كان أدهم رجلاً هادئاً، وقوراً، رزيناً، احتفظ بردود أفعاله داخلياً، وآمن أن الزمن أكبر منصف، وأن لا بدّ أن يظهر الحقّ، ويزهق الباطل. لذا، ابتعد أدهم عن العنف السريع، وابتعد عن الرد السريع. فكان ينسحب بهدوء إن آذاه شخصٌ، ويغيب عن الأنظار، إلى أن يكتشف مؤذيه خطورة ما فعل، فيحسّ بالذنب، ويعتذر لأدهم. فيرتاح أدهم، ويعاود ثقته اللانهائية بالزمن العادل.

إحساسي تجاهها غامض، أحسّ بالذكرى القديمة عندما أذكرها، كالحنين إلى الخريف ونحن في عزّ الصيف، أو كالشوق إلى الصيف ونحن في عزّ الشتاء، حنين إلى الأشياء في غير موعدها، في غيابها.

كنا نمكث في السرير ساعاتٍ طويلة، نتحدّث ونثرثر. كانت تلك متعتها، الاستلقاء في السرير، بثيابها الداخلية، تدخّن وتثرثر لي عن ماضيها، أهلها، علاقاتها، أفكارها، طموحاتها، مشاعرها، أصدقائها، خيباتها، هفواتها، أخطائها...

نشأ أدهم في جوٍّ مليء بالكتب والأوراق، كان أبوه مهتمّاً بالقراءة والثقافة، ونشأ أدهم منذ طفولته على ركامات من الأوراق. فكان يعبث بها إلى أن شبّ، وأصبحت تلك الأوراق قصوى متعته. فقد كان ينفرد بالأوراق ساعاتٍ طويلة، يكتب ويمزّق، حتى يملأ غرفته بتلالٍ من الورق. وكان جامع القمامة يقول عن بيت أهل أدهم: بيت الورق، لأن قمامتهم كانت على الأغلب من الورق. وقد سمّته أمّه، أمّ أدهم، من باب الدعابة: أدهم أبو الورق، ومن ثم، أدهم ابن الورق، ومن ثم، أدهم بن ورقة، لأنه كان يكتب ويمزق كلّ تلك الأوراق، من أجل الحصول على بضعة أسطر، يرتّبها، في ورقةٍ نهائية. كان كلّ ذلك المجهود، والتّراكُم الورقيّ، من أجل ورقةٍ واحدة.

t.me/qurssan

كانت امرأةً قلقة على الدوام، أحسّ أدهم في هذه اللحظة، بإحساس من وقع على كلّ الأشياء الجميلة التي مرّت به، إحساس بامتلاك كلّ اللحظات الجميلة التي عاشها، حاولت منحها الرعاية والحنان لعلّها تشعر بالاستقرار. ولكنها امرأة نزقة. آه! سلمى مشاكسة عنيدة، كانت تبكي في أوقاتٍ غير متوقعة، كانت تكره أن ألمسها، وترفض العلاقات الجسدية.

أحبُّ رائحتها، رائحة الأصالة، التجذّر، الحقيقية. امرأةٌ نزِقة. يذكّرني نزقها بظهيرة الصيف حيث السأم، والوقت الطويل الذي يجب قتله بالثرثرة والشرب. وهي - سلمى- بحيويتها الكاملة، ترافقني في تلك الظهيرات المملّة، تتحدث، تطبخ، تنظّف المنزل، ترتب أغراضي، تصنع قهوة عظيمة، تضحك، تغني. كان صوتها جميلاً، وأداؤها مؤثراً، كانت تملأ وقتي بحضورها الكثيف، امرأة كاملة، حيوية، مرحة، متناقضة، تضحك، وتمرح، ثم تحكي وتبكي، ثم تغني.

أعتقد أني كنت أحبّها، ولكن، لأنها صعبة المنال، عصيّة الامتلاك، تجاهلت عواطفي نحوها، وتجاهلت رغباتي، وادّعينا الصداقة البحتة.

يقول أدهم عن نفسه:

أجهزة الاستقبال عندي لاقطة بحيوية، نشطة، متجاوبة. أكره هذا، لكنه ناجم عن ضعف في تكويني. فمثلاً، عندما أدخل مكاناً، أتلبّس فوراً الحالة النفسية للمكان. فلو دخلت إلى مكانٍ فيه موسيقا صاخبة، رحت أتصرّف بصخب، ولو دخلت على جوٍّ محزِن، تصرّفت بوقار الحزانى. أي إني لست متملّكاً لحالاتي الداخلية، إنما الظرف الخارجي هو الذي يحدّد لي سلوكي، ولا توجد لديّ شخصيةٌ قوية تبرمج أموري داخلياً وتنظّمها، وهذا أمرٌ تافه ضارٌّ بتكويني.

يا للربّ! كم أستحضرها! امرأة هامة، أشعر بلذّة تلك الأحاديث والجلسات. أحبّ كلّ التفاصيل معها: الأكل، الشرب، الثرثرة، التدخين، الحوار، الغناء، ال...

t.me/qurssan

غداً، سأتصل بها، كم يشدّني الحنين! لا أصدِّق أن الغد سيأتي، سأمسك بيدها وأشدّ عليها، وربما أقبّل يدها، وسأسمعها طويلاً، حديثها الذي لا أملّ منه بتاتاً.

راح يدوّن:

إن التفاصيل الجزئية، التي يحملها المرء في ملامحه، تنطبع بصورةٍ أشدّ وأرسخ من الشخصية الكليّة للمرء، فثمة أشياء نقتبسها من الأشخاص الذين نلتقي بهم، ونرميها، في الذاكرة، دون أن نذكر هذا آن الاقتباس، فتصبح هذه الأشياء علامة فارقة على الشخص، دالّة عليه: «حركة معينة من فمه أثناء الحديث، شكل فمه عندما يبتسم، عندما يندهش، طريقة تحديقه في الأشياء، حركة يده بطريقة معينة، انحناءة رأسه إلى الأمام عندما يتكلم، تقويسة ظهره عندما يبادر بالحديث أو التحية...».

وتقفز هذه الأشياء من الذاكرة عندما نلمح ما يشبهها لدى شخص آخر، فنقول لأنفسنا: هذه الحركة تذكّرنا بشخصٍ ما. ولدى محاولة الاسترجاع، نتذكر الشخص صاحب الحركة الفلانية. فكأنّ تلك الحركة الجزئية تثبت في الذاكرة أشدّ مما تثبت شخصية فلان الكلّية.

يوم الإجازة:

استيقظت متأخراً، سوف أنهض بعد قليلٍ لصنع القهوة. لقد دخّنت كثيراً ليلة البارحة، وشربت كثيراً على ما يبدو. لم أنتبه إلى نفسي، فقد كنت أفكر بأشياء عديدة: المقهى، الكتابة، سلمى، العلاقات.

يستوطن أدهم في الملتقي به، بالإكراه أو بالطيب، ولكن لا مجال يفكّر فيه، يتعلّق به، لا يقاوم انشداده إليه.

رأسي ثقيل، وجسدي منهك، أحاول النهوض فلا أستطيع. يجب أن أصنع بعض القهوة حتى أصحو. جسدي مرهق بشدّة، كأني لم أنم كفاية، حركتي صعبة. ما أمتع الكسل! لماذا أنا رجلٌ عصابيّ؟

t.me/qurssan

هل سيخرب العالم إن تابعت نومي؟ هكذا أفضل، آخذ كفايتي من النوم، أصحو بعد ساعةٍ أو ساعتين، أشرب قهوتي، وأقرأ قليلاً، ثم آكُل وأغادر. أتمشّى قليلاً وأعود مساءً، آكل وأنام، وفي الصباح أستيقظ لأذهب إلى العمل.

إنه يوم عادي كبقية الأيام، فلماذا أزعج نفسي بمحاولة النهوض؟ حسناً، سأتابع نومي!

[[أراه متألقاً، زاهياً، منتشياً، شهيّاً، لذيذاً، في عينيه بريقٌ خاطف، لم أكن أحتمل النظر في عينيه طويلاً، تهزّني نظرته بعنف، كأنه بنظرته يسحب شرياناً من قلبي، يشدّه، يشدّه، فينحرف قلبي خلف عينيه، وأصبح دون قلب. واللّه، كان أدهم يزيح قلبي عن مكانه! كم كنت أتحاشى تلاقي نظرتَينا! لكن هذا كان يحدُث عندما نكون منفردين، وحيدين، بعيدين عن الكون المرئي. وحين أراه بين المجموع، تختلف نظرتي إليه، أجده عاديّاً، خجولاً، منسجماً، منزوياً، يكاد لا يُرى، ويكاد لا يظهر.

وأقول لنفسي: أهذا هو الرجل الذي يعبث بمصيري؟ أهذا هو الرجل الذي يحوّلني إلى لعبة ميكانيكية بين يديه، يدمّرني، يحرّكني؟ أهذا هو الرجل الذي يجعلني بلا قرار؟

كنت أتخلّص من عبء الحبّ بين الجموع، تذهب سلطاته عني. وحين ننفرد، يعود ذلك البريق الآسر إلى نظراته. فيأسرني من جديد، وتعود سلطته اللا محدودة على قلبي ومشاعري وعقلي]].

الخمول الفكري هو اختيار أنصاف الأشياء، أكره على الدوام أنصاف الأشياء، أو الأشياء النصفية، الناس النصفيين، أولئك الذين يختارون من الشيء ما يريدون، ويهملون من الشيء ذاته ما لا يريدون. هؤلاء، الذين يمدّون يدهم للوصول سريعاً إلى حصّتهم التي اختيرت، هؤلاء بشرٌ خمولون فكرياً، لا يستطيعون أخذ شيءٍ برمّته (لأنه يحوي المساوئ)، ولا رفض الشيء برمته (لأنه يحوي إغراءات). كم كرهت الناس النصفيين! كم أكرههم، التوفيقيين! هؤلاء جامعو الحلول الوسط، ومبتكرو أواسط الأشياء. أكره التوفيقية، أرفض أن أكون متصالحاً مع الظرف

t.me/qurssan

الذي أرفضه.

كان يتولّد لديّ شعورٌ مبهَم، حاولت مراراً التخلّص منه ولم أتمكّن. كان هذا الشعور يتمثل في أني موضع كراهية الآخرين. نعم، كنت على الدوام أحسّ أن الآخرين يكرهونني، دون ذنبٍ مني أو خطيئة.

طلّق ورقة زوجته بعد سبعة شهور من زواجهما، وكانت حاملاً في شهرها السابع. ولمّا وضعت، فقد تم الوضع في منزل أهلها، وقد رمى هؤلاء الولد أدهم لأبيه ورقة. ولكن ورقة رفض أخذه، إذ كان زير نساء، مشغولاً بعلاقاته النسائية، غير متفرّغ للاهتمام بالطفل. فردّ الولد إلى أهل أمه، وأعاد هؤلاء ردّه إلى أهل أبيه. وهكذا ظلّ الطفل ينوس بين الطرفين، أهل أمه من جانب وأهل أبيه من جانب ثانٍ، متعرّضاً لأشدّ الكلمات قسوةً وإهانة:

«ليتني لم أحمل بك في تلك الليلة المشؤومة!».

«ليتني لم ألمس أمَك! لو أن يدي انكسرت، أو أن عيني انقلعت، وما مسستها، وما أتيت بك أيها الهم اللعين!».

كانت جدّته، أمّ أمّه، توبّخه: لسنا مضطرّين لتربية ابن الناس، اذهب إلى أبيك وجدّتك!

وكذلك، كانت جدّته، أمّ أبيه، تفعل: لست مضطرّة لتحمّل أخطاء الآخرين، عُد إلى حضن أمَك وجدّتك!

لا أريد لأحدٍ أن يتعامل معي على أني شيء زائد، شيء يمكن انتزاعه ورميه. لذلك، كنت أبتعد دوماً عن مجالس الآخرين، لأحمي نفسي من شعور الزيادة أو الإضافة: /أنني كائنٌ إضافيّ/.

هؤلاء البشر طغاة، طغاةٌ إلى حدٍّ أعجز عن التعبير عنه، لا أحد منهم يستحقّ أن أكون معه، أتسألونني عن أسباب عزلتي إذاً؟

ولد أدهم بن ورقة عام 1951، كان مشاغباً، مغرماً بالتآمر على الآخرين والإيقاع بهم، ساعياً لتسجيل هفوات الآخرين. وكان الكثيرون يتحاشونه خشية وقوعهم بين براثنه وأنيابه. كان لديه

t.me/qurssan

عدّةٌ كاملة من أجل التجسس: (عيون الآخرين - أجهزة تسجيل - آلات تصوير، ...).

كان يتمتّع بهذه التسلية الدائمة، مراقبة الآخرين، تسجيل زلّاتهم، ابتكار أسماء وألقاب مستعارة لجميع من حوله.

إضافة إلى متعته في التسلية بالآخرين، كانت لديه متعةٌ إضافية، هي الاهتمام بالطعام. كان يحبّ الطهي، ويحبّ الأكل بشراهة لا توصف.

كان الحبّ، هو الشيء الوحيد الذي ينقذني من آلامي اليومية، من الحرّ الدبق، من مهاترات الآخرين. كان الحب، هو النعيم الفردي، الذي يوازي جحيم الآخرين. فإذا كان الآخرون جحيماً، فالفرد الواحد هو النعيم.

ولد أدهم بن ورقة عام 1946، وكان...

ولد أدهم بن ورقة عام 1963 و...

ولد أدهم بن ورقة عام 1913

ولد أدهم بن ورقة عام...

ولد أدهم بن ورقة...

ولد أدهم...

ولد...

بعد كل ما سبق ذكره وسرده ورويه عن أدهم، تبيّن له أنه ينبغي عليه سرد مذكّراته بنفسه، ورأى أن هذا أمر يستحقّ التوقف عنده، واتخذ أدهم قراراً جدياً بسرد المذكرات، ولكنّه قال:

يجب أن تكون طريقة ترتيب المذكرات مغايرة للطريقة التي عملت بموجبها حتى الآن.

ووعد أدهم بإنجاز كتابٍ كامل عن سيرته، سيكون مختلفاً عن سيرتي عنه. وفعلاً، فقد بدأ أدهم بمشروعه، فكتب في الصفحة

t.me/qurssan

الأولى من السيرة الجديدة [الجديدة ببنائها المختلف عن بناء السِيَر الأخرى، وعن بناء سيرتي عنه]:

ربما لم يكن أدهم بن ورقة واضحاً في سيرة الآخر، ربما ضاعت ملامحه الهيئوية أو الجسدية أو الشكلية، ربما أنكم تعتقدون أن أدهم يتحدث من خلف جدران لا مرئية، يأتيكم صوته، ولكنكم لا يمكنكم تخيّله، تحديد شكله، طوله، عرضه، لون عينيه، عمره...

ولكنّي رجلٌ مهتمٌّ بالحالة، برواية الحالة، لذلك، لم أهتمّ بما يسمِّيه الآخرون واقعية الروي.

إن ما لديّ كثير، ولا يقال دفعة واحدة، ولأنه مرعب ومفاجئ، لذا، قامت سيرة الآخر بتقطيع ما يجب ألّا يقال، وبتره فجأة، دون مبرّر أحياناً، للانتقال إلى مقطعٍ زمنيّ وشخصيّ ومكانيّ مغاير، لذلك تجزّأت سِيَري، وتقطّعت صوري.

قد يقول قائل: أدهم بن ورقة، من هو؟ لقد ضاعت من يدنا مفاتيح الشخصية، أين الحبكة، والدرزة، والخاتمة، والحلّ، والصراع، والزمان، والمكان، والحدث...

أجيب: لا أريد أن تكون لشخصيّتي ملامح محدّدة، فأنا رجلٌ أتوالد باستمرار، لا يمكن لي وضع شخصيتي أو شخصياتي في قالب هيئويٍّ محدّد ومؤطّر، لا شكل ثابتاً لي، ولا ملامح نفسيّة كذلك، فأنا رجلٌ لا أحبّ الوصف، ولا التسلسل السردي. إنما مولعٌ أنا بالحوار والكشف المباغت والمباشر عما أريد الإفصاح عنه، عفويّ، تلقائيّ، مباشر إلى درجة العنف. وأنا أيضاً نقيض هذا تماماً.

ترى، أسأجد واحداً منكم يخرجني من قالب الهيئة، الجسد، الصيغ العامة، ليُقحِمني في عمق العالم، كائناً لا يهمّ زمانه ومكانه، كائناً إنسانياً خارج المصير المسبق الصنع؟!

وأقول لكلّ محاولٍ تصنيفي وترتيب صيغي، أقول له قبل أن يصوغني، وبعد أن يفشل في صياغتي، أقول له: اتركني كما أنا، مستجمعاً كلّ الصيغ، فأنا كلّ الصيغ، يتداخل فيّ العجوز مع

t.me/qurssan

الطفل، الوقور مع الطائش، الخيّر مع الشرير، لن تحدّد بدايتي ونهايتي، فأنا لا بدئي ولا نهائي، اللا مبتدئ، المتبدّي، المتظهّر، اللا منتهي، الميت، الحتمي، المتوالد الأبدي، اللا متصالح، الأزلي.

لـن تحـدّدني، أنـا كـلّ الصيغ، كـلّ الصياغات، أنـا الـلا منتـهي، اللامتناهي، اللانهائي:

النهايات المفتوحة والبدايات المغلقة أنا، أنا المفتوح نحو هاوية اللا نهاية، لست إحدى الصيغ، ولست بعض الصيغ، ولست عدّة صيغ، أنا منتهى الصيغ.

أنـا الجميع، النساء والرجـال، جزءٌ مـذكّر فـي شـخصيةٍ مؤنّثة، وجزءٌ مؤنّث في شخصيةٍ مذكّرة، تغلب ذكورتي على أنوثتي، وتغلب أنوثتي على ذكورتي، لا فرق إن كنت أدهم بن ورقة، أو ورقة بن أدهم، الأبيض في الأسود في الأحمر في البنيّ في اللا منتهي اللوني...

هذا هو:

مشتهى الخلود، أنا الخلود!

أنـا الغـائب والحاضـر، الكـلّيّ والجزئيّ، الرائي والمعمي، المبصر والمغمـض، المتنـاهي فـي الـلا متنـاهي، نـهاياتي تعدم بداياتي، وبداياتي تعلن لا نهائيتي، أنا تناهي اللامتناهي، وأنا لا متناهي التناهي.

أدهم أنا، صيغٌ متعدّدة لكائنٍ بشريٍّ واحد، هو أنا إذاً، أنا الإنسان اللامتناهي.

أدهم بن ورقة

5آب 1994/ مؤقتاً إلى أن يلغى التأريخ .

بعد هذا الانفعال الذي تحدّث به أدهم، أُغمي عليه. وقد رأيت أوراقه مشوّشة، ممزّقة، حائرة. تركته يرتاح، وغادرته.

اتصل بي في صباح اليوم التالي:

t.me/qurssan

أرجوكِ، أحرقي جميع الأوراق التي كتبتها! صدّقيني، هذه أوهام تخصّ كلينا فقط! إني نادمٌ على كلّ ما قلته ودوّنته. لن يستطيع أحد معرفة من أنا كما أنا، الكلّ يُسقط معارفه التاريخية المسبقة عليّ، سيقولون السوبرمان، بهلوان الرقص على الحبال، سيقولون الله في صيغته المطلقة.

عزيزتي: من أجلي، أحرقي جميع الأوراق! لن يفهم أحدٌ منهم، ضمن فهم المحدود والمتناهي والمجبول بمعارف مسبقة، لن يفهم أحدٌ منهم مَن أنا، ولن يكتشف أحدٌ هذا الأنا.

دعيني أتناهى إلى لاتناهيّ، بعيداً عن الكون المرئي، المحدّد بطولٍ وعرضٍ وعمقٍ وجغرافيا وتاريخ وبداية ونهاية و...

ولكني، آه، سامحني، يا أدهم! كنت عنيدة، وجبانة معاً، لم أجرؤ على إحراق هذا الكمّ الورقي، وكنت مصرّة بعناد على محاولة الاقتحام هذه.

أيرضى أدهم عمّا فعلته؟ أيرضى عن خديعتي الصغيرة هذه؟ أيغفر لي؟ سامحني يا أدهم! وسامحني أيضاً لأني لم أذكر اسمك الحقيقي! سامحني لأني لم أؤكد أنك موجودٌ وواقعي وحيّ! سامحني لأني حوّلتك إلى بطل ذهني، أوحيت أنك من صنعي، لقد سمحت بمعاملتك ككائن ورقيّ، سامحني يا...، أيها الخالد اللانهائيّ، يا اللامتناهيّ!

أنا

6آب 1994/ مؤقتاً، إلى أن يلغى التأريخ .

t.me/qurssan

مها حسن

كاتبة وروائية سورية تقيم في فرنسا. تكتب في المجلات والصحف والمواقع العربية.

حاصلة على جائزة هيلمان/ هامت التي تنظمها منظمة هيومن رايتس ووتش (Human Rights Watch).

ترجمت بعض رواياتها إلى اللغة الإيطالية واللغة الفرنسية.

مؤلّفاتها الأدبية:

- اللامتناهي: سيرة الآخر، رواية، 1995.
- لوحة الغلاف: جدران الخيبة أعلى، رواية، 2002. (طبعت طبعة ثانية تحت اسم: «ذيول الخيبة»).
- تراتيل العدم، رواية، 2009.
- حبل سري، رواية، 2010. وصلت إلى اللائحة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام 2011.
- بنات البراري، رواية، 2011.
- طبول الحب، رواية، 2013.
- الراويات، رواية، 2014. وصلت إلى اللائحة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام 2015.
- نفق الوجود، رواية، 2014.
- مترو حلب، رواية، 2016. وصلت إلى اللائحة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب - فرع الآداب، دورة 2017-2018.
- عمتِ صباحاً أيتها الحرب، رواية، 2017. وصلت إلى اللائحة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب، دورة 2018-2019.
- حيّ الدهشة، رواية، 2018.

t.me/qurssan